كلمات في العقيدة

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

كلمات في العقيدة

الكتاب العاشر

بقلم
د. أمير الحداد

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ (آل عمران).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ (النساء).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ (الأحزاب).

أما بعد

إن أعظم ما يتقرّب به العبد إلى ربه عزَّ وجلَّ هو بتحقيق كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» والتي من أجلها خلق الله الخلق وأرسل الرسل وأنزل الكتب.. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ (الأنبياء).

من قالها صادقاً دخل الجنة... ومن نقضها خُلِّد في نار جهنم والعياذ بالله..

ولتحقيق هذه الكلمة يجب على العبد أن يحقق أركان الإيمان التي

وردت في حديث جبريل عليه السلام: «... **قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت**» (مسلم).

هذه الأركان هي موضوع هذا الكتاب الذي بين يديك.. يقدمه المؤلف لعامة المسلمين بأسلوب حواري سهل سلس كما في الواقع اليومي للمسلمين... وهو العاشر في هذه السلسلة التي أسأل الله أن يتقبلها ويبارك فيها..

وكما في الكتب السابقة فقد ضمّنت الكتاب الأحاديث التي حكم عليها أهل الإختصاص بالقبول... وكما هو كل عمل بشري فإن هذا الكتاب لا يخلو من الغلط والنقص...

وإني سائل كل من قرأ في كتابي هذا ألا يبخل على الكاتب بالدعاء بالثبات على الدين الحق في حياته وبالمغفرة والرحمة بعد مماته... وألا يبخل ببيان مواضع الخطأ والزلل بالتواصل مع الكاتب إلكترونياً...

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يغفر للكاتب ولوالديه وأن يصلح له في أهله وذريته وأن يحسن خاتمته... إنه ولي ذلك سبحانه وتعالى...

والحمد لله رب العالمين

د. أمير الحداد

الكويت - ١٤٣٣هـ - ٢٠١٣م

www.prof-alhadad.com

لا إله إلا الله

- هذه هي كلمة التوحيد العظمى.. أرسل الله من أجلها الرسل وأنزل الكتب، ولأجلها قاتل الرسول ﷺ الناس.. من مات عليها دخل الجنة.. ومن نقضها دخل النار.

- لا يشك أحد في عظم هذه الكلمة ولكن لنذكر بعض الآيات والأحاديث الصحيحة في شأنها.

صاحبي لايكاد يقتنع بأية فكرة.. كثير السؤال.. والجدال أحياناً.. ولكن أحب فيه رغبته في التعلم والدقة في طلب الإجابات.

- يقول الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ (آل عمران)، ويقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (الأنعام).. ويقول سبحانه: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ (الأنعام).. ويقول تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (الأعراف)..

وأختم بهذه الآية من سورة التوبة: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ (التوبة).. وهناك آيات أخرى كثيرة.

– لم تذكر آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ (البقرة).

– أحسنت.. ولكن أخبرتك أن هناك آيات أخرى في إثبات مكانة هذه الكلمة.. والأحاديث في فضلها كثيرة لا مجال لذكرها كلها.. ولكن نذكر شيئاً يسيراً منها.. ففي مسند الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال في حديث طويل: «**وإن نبي الله نوحاً** ﷺ **لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٌّ عليك الوصية، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بـ(لا إله إلا الله) فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت (لا إله إلا الله) في كفة رجحت بهن (لا إله إلا الله)، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن (لا إله إلا الله)، وسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق.. وأنهاك عن الشرك والكبر...**» صححه الألباني.

وتعرف حديث التسعة والتسعين سِجلاً؟!

– نعم.. ذاك الرجل الذي لم يكن له من الخير إلا بطاقة كتب فيها (**أشهد أَنَّ لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله**) رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.

– وهناك حديث طويل عن أهوال النار.. ومنه «فيقول الله عز وجل: «**شفعتْ الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم**

الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط إلا أنهم لم ينقضوا (لا إله إلا الله)..» (مسلم).

فلا يبقى في النار أحد قال لا إله إلا الله صادقاً.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ (النساء).

- وهل تنفع «**لا إله إلا الله**».. من لم يصلِّ أو يصم أو يأت بالطاعات.. ومن وقع في شرب الخمر وربما السرقة والزنى.. وغيرها من الكبائر وربما قتل النفس التي حرم الله؟

- نعم.. تنفعه «**لا إله إلا الله**».. إن قالها صادقاً غير منافق.. هذه عقيدة أهل السنة والجماعة.. فكل ذنب دون الشرك يكون إلى الله أن يغفره أو يعذب عليه.. وإن عذب الله عليه العبد فإنه ينال جزاءه.. ثم يؤخذ به إلى الجنة.. وهذا دليله الحديث الذي ذكرناه قبل.. «**عتقاء الرحمن**».. لم يفعلوا خيراً قط على الإطلاق.. ولكنهم لم يقعوا في الشرك ولم ينقضوا «**لا إله إلا الله**».

والأحاديث الأخرى في عظم كلمة (**لا إله إلا الله**) كثيرة، منها حديث «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأعلاها لا إله إلا الله**» مسلم، وحديث: «**من خُتم له بإطعام مسكين محتسباً على الله عز وجل دخل الجنة، ومن خُتم له بصوم محتسباً على الله عز وجل دخل الجنة، ومن خُتم له بقول لا إله إلا الله محتسباً على الله دخل الجنة**» صححه الألباني، وحديث: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الشكر الحمد لله**» صححه الألباني.

الله عرفناه.. بالعقل!

يكثر صاحبي من استخدام «اللّه ما شفناه لكن بالعقل عرفناه» وذلك ليدلل على وجود منطق أو عدم منطق في نقاشاته مع الآخرين.

ورغم أنني أسمعه منذ سنوات إلا أنني لم أبحث عن حكم هذه المقولة من باب العقيدة.

سألته مرة:

- هل تعلم حكم استخدام عبارتك هذه؟

تعجب من سؤالي:

- لا أظن أن فيها شيئاً، ولكن أنت صاحب قضايا العقيدة وأكيد لديك الإجابة.

وبالفعل كنت قد بحثت الأمر.

كان حوارنا في طريق عودتنا من المقبرة وقد حضرنا الصلاة والدفن لأخينا (عبدالرحمن) نسأل اللّه له الرحمة والمغفرة، والنعيم في القبر، والطمأنينة عند البعث والمآل إلى الجنة، اللهم آمين.

- هذه العبارة تحتوي على قضيتين، الأولى: رؤية اللّه، والثانية: معرفة اللّه، أما أننا لم نر اللّه ولن نراه في الدنيا، فهذا حق لا ريب فيه، ونسأله عز وجل أن يمنّ علينا ويكتبنا فيمن يراه في الآخرة.

- آمين، آمين يا رب العالمين.

هكذا كانت ردة فعل صاحبي.

- والقضية الثانية معرفة الله عز وجل، وهذه فيها تفصيل؛ وذلك لأن معرفة الله تبدأ بمعرفة وجوده سبحانه، والأدلة على وجوده كثيرة، منها الأدلة الفطرية، والعقلية، والحسية، وبهذا خاطب الله عز وجل البشر جميعاً، يبين لهم دلائل وجوده سبحانه وقدرته: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ (العنكبوت)، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (العنكبوت)، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ (الزخرف)، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (الزخرف).

فهذه الآيات وغيرها الداعية إلى النظر والتفكر في خلق السموات والأرض وأن الله سبحانه هو الذي أوجدها.. كثيرة، كما في قوله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت)، بل الله عز وجل أرشدهم بالمنطق والعقل إلى وحدانيته: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنبياء)، ولكن هذه المعرفة الإجمالية لا تكفي لغرض تحقيق العبودية لله، فأرسل الله الرسل جميعاً ليبينوا للبشر ما يجب عليهم تجاه ربهم ويعرفوا ربهم كما يريد هو سبحانه وتعالى، فيعرفوا صفاته سبحانه وأسماءه عز وجل، وهذه المعرفة لا مجال للعقل فيها، بل يجب اتباع ما جاءت به الرسل؛ فإن العقل لم يخلق ليعرف أسماء الله وصفاته وكيفية دعائه، ولا تفصيل الثناء عليه.

توقفنا عند إشارة مرور بانتظار أن تخضّر:

- وهل عرفنا كل شيء عن اللّه؟

- كلا، ولن نستطيع ذلك عنه سبحانه وتعالى، وإنما عرفنا ما نحتاج إلى معرفته لنحقق العبودية للّه كما يحب ربنا ويرضى، كما في دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إنني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» (صحيح مسلم)، وفي حديث الهم والحزن: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» (السلسلة الصحيحة)، وكذلك في حديث الشفاعة: «**فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي**» (متفق عليه).

فهذه المعرفة التفصيلية واللازمة لتحقيق العبودية للّه كما يحب ربنا ويرضى، لا يمكن أن نتحصل عليها بالعقل، بل لا بد من إلتزام ما جاءنا من كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ الصحيحة، وإلا أصبح العقل سبباً للضلال والعياذ باللّه.

القاعدة الأوفى في الأسماء الحسنى

من بركات شهر رمضان هذا الصيف طول النهار، حيث يمكن للمرء أن يقضي متطلبات بيته، وينال قسطاً من الراحة، ويقرأ القرآن، ويتبقى وقت لأمور أخرى، هاتفني بعد صلاة العصر مخبراً أنه سيزورني.

- أشعر أن الأسماء الحسنى لم تحظ باهتمام كبير من العلماء كما حظيت قضية التوحيد؟

- لا أستطيع أن أجزم أو أنفي، ولكن هناك العديد من الكتب القديمة والحديثة في قضية الأسماء الحسنى.

- ولكنها ليست منتشرة، وكثير منها ينقصه شيء، إما من حيث اللغة أو شرح المعاني أو وجود أحاديث ضعيفة، مثلا أشهر حديث في الأسماء الحسنى، الذي ورد عند الترمذي: ضعيف، ويشمل أسماء لا ينبغي أن يُسمى الله بها؛ لأن أسماء الله عز وجل توقيفية ولا يجوز لأحد أن يسمي الله بما لم يسم به نفسه.

- صدقت؛ وذلك لأن القواعد في إثبات الأسماء الحسنى غير معروفة عند معظم الناس.

- قاطعني:

- وأنا شخصياً لا أعرف هذه القواعد.

قالها طالبا ذكر القواعد.

- لاشك أن الاسم يجب أن يكون (عَلَمَاً) والعَلَمية في اللغة تتحقق

بدخول حرف الجر على الاسم، كقوله عز وجل: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (الفرقان)، أو أن يرد الاسم منوناً كقوله عز وجل: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (سبأ)، أو يكون معرفاً بالألف واللام، كقوله عز وجل: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾ (يس)، أو تدخل عليه (ياء) النداء كما في الحديث: «يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم» أبو داود، (صححه الألباني)، أو يكون المعنى مسنداً إليه محمولا عليه، كقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (الفرقان)، فهذه شروط خمسة تتحقق من خلالها (العَلَمية) للاسم، وبالطبع يجب أن يكون الاسم قد ورد في آية من كتاب الله أو حديث صحيح عن رسول الله ﷺ.

استغرب صاحبي.

– هذه أول مرة أسمع هذه القواعد الخمس.

– ألم تسمع المقولة: «كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي»؟ كلنا نتعلم شيئاً جديداً كل يوم؛ ولذلك من لم يلتزم هذه القواعد، أضاف إلى أسماء الله الحسنى ما ليس منها، مثلاً: «المعز – المذل – الخافض – الرافع – المبدئ – المعيد – المنتقم – المميت – العدل – الباقي – المقسط – المحصي – المغني...» هذه كلها لا تنطبق عليها قاعدة العَلَمية في الاسم وتم اشتقاقها أو استنباطها من آيات من القرآن، مثلاً سمَّوا الله (العدل) من قوله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (النحل)، وسَمَّوه الباعث من قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ

يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (الأنعام)، وسَمَّوه (المحصي) من قول الله عز وجل: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ (مريم)، والمميت من قوله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ (غافر).

قاطعني:

- هذه انتشرت على ألسنة الناس.

- ولذلك يجب أن ننشر الصحيح من الأسماء الحسنى حتى نصحح ما انتشر من أسماء لا ينبغي أن نسمي الله بها.

- وماذا بعد؟!

- من الأسماء التي انتشرت (الجليل) ولا دليل عليه، وإنما استنبطوه من قول الله عز وجل: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ (الرحمن)، و(المنتقم) من قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (السجدة)، فإذا إلتزمنا هذه القاعدة في الأسماء الحسنى، وصلنا إلى ما أراد الله لنا أن نعرفه من أسمائه مع إلتزامنا بالقرآن والأحاديث الصحيحة فقط.

القاعدة الأوفى في الأسماء الحسنى (٢)

بعد طباعة الجزء الأول من اشتراط العَلَمية.. هاتفني:

- أظنك لم تكمل القاعدة في إثبات الاسم لله عز وجل.

- صدقت.. اضطررت للسفر وسوف أرسل الجزء الثاني غداً إن شاء الله.

- أليس من حق أخوّتنا أن تطلعني على مضمون المقال قبل عامة الناس؟!

- بلى... لك ذلك.

- هات.. كلي آذان مصغية.

هكذا ألزمني صاحبي بقراءة هذا المقال له قبل نشره:

- من الشروط التي يجب توافرها في الأسماء الحسنى أن تكون غير مقيدة بزمن معين - كيوم الدين فقط - أو لفئة معينة، كالمجرمين فقط.

قاطعني:

- هل لك أن تعطي أمثلة على ما تقول؟

- نعم مثل قوله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ (مريم)، فليس من أسماء الله «الحَفّي»؛ لأنه مقيد بإبراهيم عليه السلام.. وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (السجدة)، فليس من أسمائه سبحانه «المنتقم»؛ لأنه مقيد بالمجرمين

فقط، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ (التوبة) فليس من أسماء الله المخزي؛ لأنه مقيد بالكافرين... وهكذا.

- **هذه ثلاثة شروط:** أن يرد الاسم في الكتاب أو السنة الصحيحة.. وتتحقق فيه العَلَمية وألا يكون مقيّداً.. والشرط الرابع؟!

- أن يدلّ الاسم على وصف أي أن يكون إسماً على مسمى، فالأسماء الحسنى جميعها أسماء وأوصاف لله عز وجل.. كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٨٠﴾ (الأعراف)، فالعبد يدعو الله عز وجل بأي من أسمائه الحسنى حسب الصفة التي يرجوها.. فمن أراد المغفرة والتوبة.. دعا الله عز وجل (التواب الغفور الرحيم)، ومن أراد النصرة والعزة دعا الله (العزيز القوي المتين).. ومن أراد الرزق والسعة.. دعا (الغني الكريم).

قاطعني:

- هل لك أن تبين هذه القاعدة بذكر مثال عكسي؟!

- نعم... في الحديث الذي ورد في البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**»، فليس من أسماء الله «الدهر».. وذلك لأن «الدهر» هنا اسم جامد لا يتضمن وصفاً يفيد الثناء بنفسه، وبَيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم المعنى في نص الحديث.

- وهل من العلماء من أدخل «الدهر» في الأسماء الحسنى؟

- نعم.. ذكره ابن حزم في «المُحلى».

- والقاعدة الخامسة؟!

- أن يدل الاسم على وصف في غاية الجمال والكمال والحسن.. كما في قول الله عز وجل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ (الرحمن).. فالآية تعني أن أسماء الله الحسنى تنزه عن أي معنى من معاني النقص.

وهذه القواعد ذكرها الشيخ الفاضل د. محمود عبدالرازق الرضواني في بحثه الفريد عن أسماء الله الحسنى.

وينبغي أن نذكر هنا أن معاني الأسماء الحسنى نفهمها كما هي في اللغة العربية التي نزل بها القرآن العظيم، ومن الكمال أن تقترن بالعلو.. سواء علو الشأن أم علو القهر أم علو الذات والفوقية، فمثلاً «القدير».. ورد مطلقاً معرفاً منوناً ومراداً به العَلَمية ومضافا إلى معاني العلو والفوقية.. ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾... فهذه القواعد تجعل المرء أقرب إلى الصواب في إحصاء الأسماء الحسنى.

أراد أن ينهي المكالمة:

- أعلم أني أطلت على غير العادة.. ولكني قرأت حديثاً صحيحاً في (صحيح أبي داوود).. من حديث أبي رمثة.. أنه قال: «فقال له أبي (يعني قال للرسول ﷺ): أرني هذا الذي بظهرك فإني رجل طبيب؟ فقال ﷺ: «**الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق، طبيبها الذي خلقها**»!

- نعم.. قرأت هذا الحديث وشرحه.. أما من حيث الأسماء

الحسنى.. فهذه الصفة مقيدة بما أصاب النبي ﷺ.. أي المعنى: «**الله طبيب ما أصابني**».. فليس من الأسماء الحسنى.. وبذلك نستطيع أن نرجع إلى الكتب التي ورد فيها ذكر الأسماء الحسنى لنطبق عليها هذه القواعد ونستبعد منها ما لا ينبغي أن يُسمى الله به.. سواء من الكتب القديمة أو الحديثة.. سواء كتب ابن تيمية وابن القيم وابن حزم وابن حجر والزجاج أو ابن عثيمين وغيره من كبار شيوخنا وعلمائنا المتأخرين (غفر الله لهم جميعاً).

الحكيـــم

– نعم من أسماء اللّه الحسنى (الحكيم).. ورد في كتاب اللّه أكثر من تسعين مرة.. أولها في سورة البقرة: ﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ (البقرة)، وآخرها في سورة الإنسان: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ (الدهر)، وفي اللغة.. اللّه سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين له الحكم سبحانه، قال الليث: (الحَكَم) هو اللّه ومن صفاته سبحانه.. الحَكَم والحكيم والحاكم، ومعاني هذه الأسماء متقاربة، فهو الذي يقضي في كل شيء.. وهو الذي يُحكِم الأشياء ويتقنها والحُكْم يأتي بمعنى العلم: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ و(الحكيم): المتقن للأمور، ووصف اللّه تعالى كتابه بأنه حكيم.. ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.. (يس)، وكذلك قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ (هود).. والحكمة.. معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: (حكيم).

كنت أجيب شقيقتي في مجلسنا النصف شهري.. سألتني:

– وهل يجوز وصف مخلوق بهذه الصفة.. أعني (الحكمة)؟

– بالطبع.. فلقمان يوصف بأنه حكيم.. وما زال أهل الشام يسمون الذي يمارس الطب بـ (الحكيم).. ولكن تعلمين القاعدة أن حكمة المخلوق تليق به، وحكمة الخالق تليق به؛ فهي حكمة كاملة مطلقة.. فهو (الحكيم)، الذي بلغ المنتهى في العلم والإتقان والحُكْم.

ولو تتبعنا الآيات التي ورد فيها اسم (الحكيم) لله عز وجل لوجدنا أنها اقترنت بـ (العليم) و(العزيز) و(الخبير) والأغلب مع العزيز.. ولذلك قالوا: «عز.. فحكم»، بل وصف الله عز وجل نفسه بأنه يؤتي الحكمة بعض خلقه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ (البقرة).. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾ (لقمان: ١٢).. ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ (ص) وذلك عن نبي الله داوود ﷺ.

بدأ بقية الإخوان يتوافدون وأردنا أن ننهي الموضوع.. قالت:

– أشعر بالراحة كلمة استذكرت هذا الاسم لله عز وجل.. الحكيم.. فالإنسان يريد أن يصل إلى شيء ما في حياته، أو يحصل على المال أو المنصب، ويريد أن يتجنب المصائب والعثرات، ولكن تحصل له أمور رغماً عنه، فإذا تذكر أن الذي قضاها عليه هو (الحكيم).. يعلم يقيناً أن الخير فيما قضاه الله؛ فهو (الرحيم) بعباده.. (الرؤوف) بخلقه.. (الحكيم) بقضائه، فيطمئن لقضاء الله عز وجل.

– حقاً ما تقولين يا أختاه.. إنّ تعلُم الأسماء الحسنى وما تحمله من معانٍ جميلة.. عظيمة.. كاملة.. في حق الله عز وجل تورث الإيمان الصحيح بالله عز وجل وتجعل المؤمن يعيش حياة مستقيمة مهما أصابه من ضراء أو فُتح عليه من سراء، فإن الأمر ليس عشوائياً بل بقضاء (الحكيم العليم العزيز الرحيم).

القُدّوس

ضمن حواراتنا بين العصر والمغرب في نهار رمضان الطويل، سألني بعد أن تربع على الأريكة التي تصلح للجلوس والاضطجاع:

- (روح القُدس)، هو جبريل - عليه السلام - لماذا أطلق عليه هذا الاسم؟

- نعم.. (روح القُدس) هو جبريل - عليه السلام - ومعناه: (الروح المقدس) أي: الطاهر، وقيل: (القُدس) هو الله سبحانه وتعالى، و(روح القدس) جبرائيل - عليه السلام - نسب إلى الله نسبة تشريف وتكريم كما ورد في قوله عز وجل: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ (التحريم: ١٢).

أخذت مجلسي خلف الحاسوب لأبحث في الموضوع، سألني:

- في أي آية قوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ ؟

- في سورة النحل يقول تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾، وجاء في سورة البقرة قوله (٢٥٣) سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، فكان جبريل مع عيسى يؤيده.

- و(القدّوس)؟

- اسم من أسماء الله الحسنى، ورد مرتين في كتاب الله عز وجل، في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا

يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾، وكذلك في سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾﴾، ويعني: أن الله عز وجل له منتهى الطهارة والنقاء والصفاء والنزاهة سبحانه وتعالى، وهو سبحانه الذي يملك الطهارة فيطهر من يشاء من خلقه، وكذلك له كمال البركة، فالخير كله بيديه والشر ليس إليه سبحانه وتعالى، فهو الذي يبارك من يشاء وما يشاء من خلقه عز وجل.

قاطعني: أليس هذا المعنى قريبا من (السُبُّوح) الذي هو اسم من أسماء الله الحسنى أيضاً؟!

- نعم المعنى قريب، ولكن هناك قاعدة في الأسماء الحسنى أن الأسماء الحسنى وإن كانت متقاربة بل ومتلازمة فلابد من فروق بينها وإن كانت لطيفة ودقيقة، و(القُدّوس) فيه تصريح بالعظمة، فضلاً عن التنزيه والطهارة، ولو بحثنا في استخدام العرب لمادة (قَدَسَ) لوجدنا:

- **القادس**: السفينة؛ لاستمرار وجودها في الماء الطهور.

- **القداس**: الحجر، الذي ينصب على مصب الماء في الحوض.

- **القَدَس**: السطل، أو الإناء الذي يتطهر به.

واستخدامات أخرى تدور حول المعنى ذاته.

أخذ صاحبي جلسة مريحة:

- وبيت المقدس؟

- نعم، هو المكان الذي يتطهر فيه العباد من الذنوب، جاء في نونية ابن القيم:

هذا ومن أوصافه القدّوس ذو التنزيه بالتعظيم للرحمن

ومن ذلك قول الملائكة عندما أعلمهم الله أنه سيجعل في الأرض خليفة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ (البقرة)، وذلك أن (نسبِّح) تختلف عن (نقدِّس) بزيادة الإقرار بالعظمة في الثاني.

- ألم يرد هذا الاسم في السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ؟!

- بلى، فقد ورد أن عائشة نبأت عبدالله بن الشخير أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سبوحٌ قدوسٌ رب الملائكة والروح**» صحيح مسلم.

وعن أبيّ بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم في الوتر، قال: «**سبحان الملك القدوس**» ثلاث مرات يطيل في آخرهن (النسائي) صححه الألباني.

وفي الحديث عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: «**إن روح القُدُس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله**»، وذلك عندما هجا قريشاً فشفى واشتفى. (صحيح مسلم).

وفي السلسلة الصحيحة: «**إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لا تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنّكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله فإن الله لا يدرك ما عنده إلا بطاعته**».

المؤمن المهيمن

من الأمور التي تخبرك بمرور السنين، أن ترى الأطفال الصغار الذين كنت تداعبهم و«تعايدهم» في المسجد أصبحوا رجالاً وآباء!!

طلب إليّ أحدهم أن نتدارس أسماء الله الحسنى في شهر رمضان، ولا أملك أمام طلبات أبناء المسجد إلا الاستجابة.

بعد المقدمة في اليوم الأول التي اشتملت على بعض القواعد الأساسية في دراسة أسماء الله الحسنى كتحقيق شروط العَلَمية، وأنها توقيفية، وأن الاسم يتضمن المعنى، بدأنا في اليوم الثاني بـ«الرحمن - الرحيم».

بعد الدرس رافقني «أحمد»:

- أعلم أننا سندرس اسم الله «المؤمن» و«المهيمن» في دروس لاحقة، ولكن أخشى أن أكون في نوبة وظيفية تمنعني من حضور ذلك الدرس، فهل لك أن تبين لي بعض معاني هذين الاسمين؟

ويعلم أنني لا أرد له طلباً.

- لك ذلك إن شاء الله، ولكن تعالَ نجلس في المكتب بعيداً عن هذا الحر الشديد.

بعد أن أخذنا مجلسنا:

- أمَّا (المؤمن) فقد ورد في قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿... ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ...﴾، وفي معنى (المؤمن) جاء: المصدّق لرسله وأنبيائه

بما جاؤوا به بالآيات البيّنات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات، فقد آتى كلَّ رسول ما يجعل قومه يؤمنون برسالته ويصدقون ما جاء به، وقيل: هو الذي يؤمن خلقه من ظلمه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ (النساء)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (يونس)، وأصل الإيمان: التصديق، كما قال الله عن إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾، وقيل: إن «المؤمن» في حق الله أنه الذي أمن من عذابه من لا يستحقه.

كان صاحبي الشاب منصتاً يدوّن بعض النقاط في ورقة صغيرة استخرجها من جيب قميصه.

- والمهيمن؟!

- في اللغة أن أصل (مهيمن)، (مؤأمن) بهمزتين قلبت الهمزة الثانية ياء كراهة اجتماعهما، فصارت (مؤيمن) ثم صيرت الأولى (هاء) كما قالوا: (أراق)، و(هـراق)، فصارت (مهيمن)، و(المهيمن) الشاهد كما في قوله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨).

أي إن القرآن مصدق لما سبقه من الكتب وشاهد على صحة ما فيها إذا توافقت مع ما فيه، وقالوا: (المهيمن) القائم على خلقه، أي: القائم بأمور الخلق، وجمع بعض أهل العلم معنى: (المهيمن) على أربعة أقوال: (المؤتمن، الشهيد، الرقيب، القائم).

أراد صاحبي أن يغادر: لا أريد أن أثقل عليك، ولكن ما دمنا في هذه الأسماء لم لا نتطرق لاسم (السلام)؟!

- (السلام) جاء في آية الحشر نفسها، واتفق العلماء على أن معنى اسم اللّه (السلام): الذي سلِمَ من كل نقص وبرِئَ من كل عيب، والثاني: الذي سلم خلقه من ظلمه، والثالث: الذي يسلّم على عباده: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ (يس)، وفي الحديث عن عبداللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال: «**كنا إذا صلينا مع النبي ﷺ قلنا: السلام على اللّه قبل عباده، السلام على جبرائيل وميكائيل، وعلى فلان، وفلان، يعنون الملائكة، فسمعَنا رسول اللّه ﷺ فقال: لا تقولوا: السلام على اللّه؛ فإن اللّه هو السلام؛ فإذا جلستم فقولوا: التحيات للّه، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة اللّه وبركاته، السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين، فإذا قال ذلك أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض**» صحيح ابن ماجه.

وفي السلسلة الصحيحة: «**إن السلام اسم من أسماء اللّه تعالى وضعه في الأرض؛ فأفشوا السلام بينكم**».

فسبِّح بحمد ربك

- اعلم أن (سبحان الله) معناها: أنزّه الله وأعظمه من كل نقيصة، فله الكمال المطلق.. ولكن ما معنى التسبيح بحمده.. كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ (الطور)؟

- **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:** «التسبيح يقترن بالتحميد، والتهليل يقترن بالتكبير».

قاطعني:

- الشرح لو سمحت.

- سيأتيك لو أنك صبرت.

كنت وصاحبي بين العشاءين في المسجد وحدنا، أخذ هو الزواية اليسرى، وجلست أنا في الوسط.. نقرأ القرآن، وقبل الأذان بعشر دقائق جالسني ليسأل عن (التسبيح).

- أتابع كلام شيخ الإسلام: (التسبيح والتحميد) يجمعان النفي والإثبات: نفي المعايب، وإثبات المحامد، وذلك يتضمن التعظيم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾﴾ (الأعلى) وقال عز وجل: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ (الواقعة) فالتسبيح يتضمن التنزيه المستلزم للتعظيم و (الحمد) يتضمن إثبات المحامد المتضمن لنفي نقائضها؛ لذلك اقترنا: (سبحان الله وبحمده. سبحان الله العظيم).

- ما زال السؤال قائماً؟

دعني أكمل وستعرف الجواب إن شاء الله.. جاء التسبيح أحياناً لاسم الله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾ كما جاء الذكر لاسم الله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢٥﴾، فحيث عظَّم العبد ربه بتسبيح اسمه أو الاستعاذة بكلماته أو الحلف باسمه.. فهو مسبح له.. وكل ذلك ثابت في كتاب الله وسنة النبي ﷺ وصيغ التسبيح في القرآن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وكلها تحمل المعنى ذاته.. ولو تتبعنا ﴿سُبْحَـٰنَ﴾ في القرآن لوجدنا أنها تأتي مع عجائب الأمور: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ (الإسراء:١)، ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ (الصافات)، ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ٢٦﴾ (الأنبياء).

- وماذا عن تسبيح المخلوقات؟

- كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ (الإسراء: ٤٤)، فهذا من الأمور الغيبية التي لا نعرف كيفيتها ونؤمن بحدوثها.

وصيغة: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ استغرقت كل شيء من مخلوقات الله كما في آية السجود من سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨﴾، فكل شيء يسبح بحمد الله إلا بعض الإنس والجن.

- أحاول أن أذكر بعض أنواع الذكر التي فيها التسبيح.

- «التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على رأس ذكر اللّه عز وجل.. ومن أجلّ منازل الذكر ومراتبه العالية.. وغراس الجنة.

وفي الأثر: جلس عبداللّه بن عمرو وعبداللّه بن مسعود فقال ابن مسعود: «لأن آخذ في طريق أقول فيه: سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر، أحب إلي من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل اللّه.. فقال عبداللّه بن عمرو: لأن آخذ في طريق فأقولهن أحب إلي من أن أحمل عددهن على الخيل في سبيل اللّه»، وذلك مصداقاً لحديث النبي ﷺ.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول اللّه ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير من إنفاق الذهب والوَرِق وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم**» قالوا بلى. قال: «**ذكر اللّه**».

قال معاذ بن جبل: ما شيء أنجى من عذاب اللّه من ذكر اللّه.

رواه أحمد بإسناد حسن وابن أبي الدنيا والترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي وقال الحاكم صحيح الإسناد (صححه الألباني).

سبحان الله

صاحبي من المحبين للغة العربية ومولَـعٌ بإعراب مفردات القرآن... يقول لي: «من لا يعرف الإعراب... لا يدرك المعنى».. والقرآن كما بلغنا عن رسول الله ﷺ هو الكمال في الكلام... بلاغة.. وترتيباً... وإعراباً.. وجمالاً... وإعجازاً؛ لأنه كلام الله عز وجل.

- من أجمل ما أقرأ في كتاب الله - وكله جميل كامل - كلمة «سبحان».. لها وقع عجيب على قلبي وعقلي.

- نعم هذه الكلمة إحدى كلمات أربع خصها النبي ﷺ بأمور كثيرة.. «**سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله أكبر**»... فهن من أطيب الكلام .. وغراس الجنة... والجُنة «بضم الجيم» من النار... ولهن دوي كدوي النحل حول العرش... وتجزئ من القرآن لمن لم يتمكن من حفظه... والإكثار منها يحط الذنوب ويرفع الدرجات ويعتق من النار.

قاطعني...

- ومع ذلك فإن «**سبحان الله**» أكثر تأثيرا فيّ من الباقي... كيف نعرب «سبحان»؟

- هو اسم فعل مبني على الفتح بمعنى أنزه الله وأبرئ الله من كل ما لا ينبغي أن يوصف به أو ينسب إليه... وعند سيبويه من الأسماء الموضوعة موضع المصادر، وفي تاج العروس: «سبحانَ» نُصب على المصدر ونصبه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره: أسبح الله سبحانه تسبيحاً، فنقول دائما... «سبحانَ» بنصب النون.

لم يخفِ صاحبي إعجابه بما نقلت له من كتب اللغة.

- ولو تدبرنا معنى «سبحان» في العقيدة لكان التأثير أبلغ... اقرأ قول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ (الإسراء).. وقوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ (النور)، ويخبر عن الملائكة.. ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الأنبياء).. كل شيء في هذا الكون يسبح الله.. يقول «سبحان الله»: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾... أي ما من شيء إلا يسبح بحمده... وهذه الصيغة استغرقت كل شيء... ولم تترك شيئا... كلها يقول: «سبحان الله».. أعظم المخلوقات.. حملة العرش... وأصغر المخلوقات... ذرات الهواء... وما بينهما... من طير وشمس وقمر وشجر.. وكل شيء.. إلا بعض الناس.. أَبى أن يكون مع من يسبح الله... فجعل لله الشريك... والولد.. والند..

- وماذا عن «وبحمده»... عندما نقول: «سبحان الله وبحمده»؟

- أصل الحمد الثناء على الله... ومدحه... ولعلنا نفرد جلسة أخرى لبيان معاني الحمد.. ولكن عندما نقول: «سبحان الله وبحمده».. فإننا نرجع الفضل لله عز وجل أن مكّننا من «تسبيحه».. فنثني على الله ونحمده أن سبحناه.

الحمد لله

(الحمد) نقيض الذم، فهو المدح والثناء، و(أحمد) الرجلُ: فعل ما يحمد عليه، و(أحمد): صار أمره إلى الحمد، واستحمد اللّه إلى خلقه بإحسانه إليهم وإنعامه عليهم، أي: استحق سبحانه أن يحمده خلقه، و(التحميد): حمد اللّه مرة بعد مرة لجميل أفعاله، ومنه: حامد، وحماد، وحميد، وحمد، وحمدون، وحمدان، وحمدي، وحمود، هذا بعض ما ورد في اللغة عن (الحمد).

- وفي الشرع؟

كنت وصاحبي نراجع بعض المواضيع عصر أحد أيام الصيف، حيث ما بين العصر والمغرب أكثر من ثلاث ساعات، إلتقينا عنده في المنزل حيث نجد ما نحتاج من مراجع، سواء على الأرفف أم في جهاز الحاسوب.

- في الشرع (الحمد) من الكلمات التي يحبها اللّه، واصطفاها لخلقه، فهو سبحانه يحب لعبده أن يثني عليه ويمدحه، وسبحانه يستحق المدح والثناء على كل حال، وهو يثني على نفسه كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ (الفاتحة) والسوَر الأخرى التي بدأت بـ(الحمد للّه) هي: الأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وفيها إشارة إلى بعض نعم اللّه على خلقه التي يستحق من أجلها أن يُحمد ويُثنى عليه عز وجل.

(والحمد) كلمة ابتدأ بها الخلق، وينتهي بها الأمر؛ ففي سورة الزمر وبعد أن أُخذ أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، وقضي بين

الجميع بالحق، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الزمر).

- وفي الأحاديث؟

- سمع رسول الله ﷺ أحدهم يسأل الله دون أن يبدأ بالحمد، فقال ﷺ له: «**عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله ثم صلِّ عليَّ ثم ادعه**» (صحيح الجامع الصغير). وكان ﷺ إذا تهجد من الليل قال: «**اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن...**» (متفق عليه). وكان ﷺ يقول: «**اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» مسلم، والمعنى: أني لن أبلغ ما تستحق من الثناء والمدح ولا يدرك ذلك إلا أنت سبحانك. وفي الرفع من الركوع: «**اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد**» (صحيح مسلم)، وكان ﷺ يفتتح خطبه بقوله: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه**».

- وهل صحيح قول: الحمد الذي لا يحمد على مكروه سواه؟

- لم أجد هذا القول في كتب الحديث، إلا عند ابن أبي الدنيا في التبويب الموضوعي للأحاديث، ولكن في السلسلة الصحيحة، أن الرسول ﷺ كان إذا رأى ما يحب قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**»، **وإذا رأى ما يكرهه قال:** «**الحمد لله على كل حال**».

وفي السلسلة الصحيحة أيضاً عن ابن عباس قال: أخذ النبي ﷺ بنتاً له تقضي (تحتضر) فاحتضنها فوضعها بين ثدييه فماتت وهي بين ثدييه، فصاحت أم أيمن، فقيل: أتبكين عند رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست أراك تبكي يا رسول الله؟ قال: «**لست أبكي إنما هي رحمة، إن المؤمن بكل خير على كل حال، إن نفسه تخرج من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل**»، وفي الحديث: «**إذا مات ولد الرجل يقول الله تعالى للملائكة: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع، فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد**» حسنه الألباني.

(**الحمد لله**) تقال عند النعمة وعند المكروه، وابتداء دون هذا أو ذاك.

رب العزة

قرأ إمامنا أواخر سورة الصافات.. وختمها: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

رافقني (بوبدر) بعد الصلاة:

- (رب العزة).. من أسماء الله عز وجل؟

- بل من صفاته سبحانه أنه: (رب العزة).. و(العزيز) من أسمائه، و(العزة) جاءت في كتاب الله والسنة الصحيحة على ثلاثة معانٍ:

الأول: بمعنى الامتناع والغنى وعدم الحاجة.. الامتناع عمن يغالب، والغنى عن الخلق.

والثاني: القهر والغلبة.

والثالث: القوة.

وهذه كلها حق لله عز وجل كما يليق به سبحانه وتعالى

- وهل جاء هذا الوصف لله عز وجل في غير هذا الموضع من القرآن؟

- أما: (رب العزة) فلم يرد إلا في سورة الصافات، ونسبة (العزة) لله عز وجل جاءت في سورة النساء: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾، وكذلك في سورة يونس: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾، وفي سورة فاطر (١٠): ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾، وفي سورة: (المنافقون): ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾، فالعزة بمعانيها الكاملة تنسب لله عز وجل، فهو (رب العزة) أي ذو العزة، ويعطي العزة، ولا يملك العزة سواه، ويعطيها من يشاء ويسلبها ممن يشاء.

- وفي سنة النبي ﷺ.. هل جاء هذا الوصف؟

- نعم.. جاء لفظ: (رب العزة)، في الحديث المتفق عليه.. قال ﷺ: «**لا تزال جهنم يُلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله** - وفي رواية: قدمه - **فينزوي بعضها إلى بعض؛ فتقول: قَطْ.. قَطْ**».

كانت ردة فعل صاحبي تلقائية:

- اللهم ألطف بنا!

- لا شك أنه مشهد عظيم ذكره الله في سورة (ق): ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾، هذه النار العظيمة سميت جهنم؛ لبعد قعرها.. في أحد الأقوال، ولا تزال تطلب المزيد ممن يستحق دخولها، وتسعهم.

قاطعني:

- وهل تتكلم جهنم؟

- نعم، هكذا قال الله تعالى، فهي تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، وفي الحديث: «**تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال الله**

تعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار إنما أنت عذاب أعذب بك من أشاء من عبادي.. ولكل واحدة منكما ملؤها» متفق عليه، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع (رب العزة) رجله فيها فتقول: قَطْ.. قَطْ، فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً.. حتى تمتلئ.

الله يخوفنا!

– لماذا تكثر من ذكر العذاب والنار وتخوّف الناس من الآخرة، والله تبارك وتعالى عندما أرسل موسى إلى فرعون قال له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ (طه)؟

– لقد علم الله أن أنفع أسلوب مع فرعون (القول اللين) ولذلك أمر به موسى.

قاطعني:

– ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكذلك أمرنا الرسول ﷺ بالرفق: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه**» (مسلم).

– كلام صحيح، ولكن الموضوع الذي تطرقتُ له هو الحكمة من إظهار الآيات للبشر، وذكرتُ قول الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ (الإسراء)، في تفسيرها قال قتادة: إن الله يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يذكّرون أو يرجعون، وذلك أنه سبحانه وتعالى إذا أعطى قوماً آية طلبوها – كما طلب أهل مكة من الرسول ﷺ أن يقلب لهم الصفا ذهباً – (مسند الإمام أحمد) ثم كفروا فإن الله يستأصلهم، وذكر مثالاً لذلك ثمود قوم صالح، فإنهم كذّبوا صالحاً بعد أن أتتهم الناقة آية بينة، فظلموا بها.

– هل يريد الله منا أن نخاف؟

- نعم.. اللّه يخوفنا بالآيات، ويريد منا أن نخاف عذاب الآخرة كما قال تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ (ق)، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (هود)، والرسول ﷺ ذكر لنا في الأخبار الصحيحة أنواعاً كثيرة من العذاب، ابتداء من انتزاع الروح إلى ضمة القبر، إلى حياة البرزخ، إلى الموقف في المحشر، إلى عذاب الكذب، والزنى، والنوم عن الصلاة، ومنع الزكاة، وكنز الأموال، والتعامل بالربا، وظلم الناس، وأهوال كثيرة لأجل التخويف الحقيقي، وجاء في وصف المؤمنين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ (النور).

نعم يريد اللّه منا أن نخاف، نخاف غضبه، نخاف عذابه، نخاف ناره، وهذا الشعور - أعني الخوف - هو الذي يردعنا عن المعصية والتمادي فيما يغضب اللّه.

أظهر صاحبي موافقته على وجهة نظري.

- حقاً.. نحتاج أن نقوي شعور الخوف من اللّه في قلوبنا، حتى ننشط في طاعته ونبتعد عن معصيته؛ فلقد كان رسول اللّه ﷺ أشد الناس خوفاً من اللّه، وكذلك الملائكة من أشد الخلق خوفاً من اللّه.

- هذا الخوف ينبغي أن يُبنى على عقيدة صحيحة حتى لا يتحول إلى وساوس، خوف من العذاب، فامتناع عن المعصية، أو توبة بعد المعصية وإقلاع عنها مع الرجاء بالمغفرة، ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ (الحجر).

أأمنتم من في السماء؟

- هذه الآيات من سورة الملك (تبارك) تحذر الناس جميعا من أن (يأمَنوا اللّه) سبحانه وتعالى.

- ماذا تعني (يأمَنوا اللّه)؟! بكلمات نفهمها نحن عامة الناس.

- المعنى أن يطمئنوا ألا يأتيهم عذاب اللّه.. كما قال عز وجل: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (النحل) فإن اللّه ينكر على من يعمل السيئات أن يأمَن ويطمئن ألاّ ينزل عليه عذاب اللّه؛ ولذلك قال كثير من المفسرين: إن المراد الكفار وأهل المعاصي، والصحيح ألا يأمن أحدٌ عذاب اللّه، وذلك باستقراء الآيات والأحاديث الصحيحة.

- هلاَّ زدتنا بياناً؟

كنا أربعة نفر نتحاور بين العشاءين بعد أن خلا المسجد من المصلين.

- في هذه الآيات يقول تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ (تبارك).

وفي سورة الأعراف يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ

يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (الأعراف).

- يحذّر اللّه أهل القرى من عاقبة تكذيبهم الرسل.

قاطعني (بو سالم):

- وما المقصود بـ(مكر اللّه)؟

- تدبير اللّه للأمور؛ فإن المكر لغة هو التخطيط بالسر لضرر المكيد، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال)، ورجوعاً إلى موضوعنا الأول، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ (الإسراء)، فالمؤمن حاله أنه في خوف دائم من اللّه عز وجل، ولاسيما إذا وقع منه ذنب وتقصير.

- وماذا عن معنى المفردات؟

- يخسف.. يغور (يجعلكم داخل الأرض).

تمور.. تضطرب وتتحرك كما الرحى.

حاصباً.. ريحاً فيها حصباء (حصى).

والمعنى على العموم أن المطلوب من المؤمن ألا يطمئن بأن اللّه لن يصيبه بعذاب في الدنيا، ومن باب أولى أهل المعاصي، فإذا وقع منه ذنب

رجع ولم يتمادَ، وكذلك لا يقنط من رحمة الله ولا ييأس من روح الله؛ فإن الصحابة حتى من بشّرَهم الرسول ﷺ بالجنة، كما أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان يقول: «**والله لو كانت إحدى قدميّ في الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله**» بمعنى: تدبيره وعقابه لي نتيجة ذنوبي، وذلك من باب التأدب مع الله وعدم ضمان شيء على الله عز وجل، وربنا يرسل بين فترة وأخرى شيئاً من آياته يذكرنا بعذابه، كما الخسوف والكسوف والزلازل والفيضانات والعواصف الرملية والثلوج.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ (المدثر) ولكن كثيراً من الناس لا يتفكرون.

ولن تجد لسنة الله تحويلاً

خلق الله هذا الكون وفق قوانين لا تتبدل ولا تتغير.

قوانين ثابتة تبقي كل شيء وفق نظام دقيق.

من هذه القوانين ما يتعلق بالكون.. السموات والأرض والنجوم والشمس والقمر والليل والنهار.. ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يس).

ومن هذه القوانين ما يحكم حياة البشر.

كنت وصاحبي نعود أحد معارفنا في المستشفى الصدري بعد أن أجرى عملية «قلب مفتوح».. عبرنا خطأً في ممر العناية المركزة وإذا المرضى موصلون بأسلاك وأنابيب دون حراك.. «كم هي عظيمة نعمة العافية».

- وما القوانين التي تحكم حياة البشر؟

- البشر أمماً وأفراداً تحكمهم قوانين منها الصراع بين الحق والباطل.. انتصار أهل الإيمان.. قانون الابتلاء.. قانون الظلم والظالمين.. إلى غيرها من القوانين الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل أبداً، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنعام).

جلست وصاحبي بانتظار المريض.. أخبرنا ابنه أن الممرض أخذه لبعض الفحوصات.

- وما قانون «انتصار أهل الإيمان»؟

- هذا القانون ورد في قول الله تعالى.. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الروم) فالمؤمنون ينصرهم الله إذا حققوا شروط هذا القانون.

- ماذا تعني؟!

- أعني أن لكل قانون (سنة) شروطاً يجب تحقيقها حتى نصل إلى النتيجة المطلوبة.. فإذا تخلف النصر عن فئة مؤمنة يجب أن نبحث عن الشرط الذي أخلّوا به والذي أدى إلى تخلّف النصر عنهم، ومن هذه الشروط:

١- خلل في الإيمان.. ولذلك كان عمر بن الخطاب يوصي جيوشه ومنها جيش سعد بن أبي وقاص: «وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم».

٢- عدم إعداد القوة قدر الاستطاعة.. ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الأنفال).

٣- الاجتماع وعدم التفرق.. ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الأنفال).

٤- إخلاص النية لله، وتجديد ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ (محمد).

٥- أخذ الحيطة والحذر.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ (النساء).

٦- طاعة القائد العام والتزام أوامره.. (غزوة أحد).

٧- عدم الاغترار بالعدد والعدة وإرجاع القوة لله دائما.. ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥﴾ (التوبة).

٨- الصبر وتحمل الأذى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ (آل عمران).. ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ (آل عمران).

وبالطبع دعاء الله واللجوء إليه.. فقد كان النبي ﷺ يلح في الدعاء كما في غزوة بدر: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»، فما زال يهتف بربه مادًا يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبوبكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: «**يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك**» (صحيح مسلم).

سنة الله في الرزق

- نعم جعل الله تعالى للرزق قوانين، لا تتغير ولا تتبدل، من اتبعها نال الرزق من الله تعالى، وذلك أن الله خلق الخلق وتكفل بالأرزاق كما في قوله: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ (هود).

- وهل هذه القوانين واضحة بحيث يعرفها عامة الناس؟

- نعم.. إذا هم تدبروا كتاب الله، وأول هذه القوانين أن الرزق يحتاج إلى سعي وطلب، من أراد الرزق فعليه أن يسعى في طلبه، كما في قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ (تبارك)، وكذلك: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ (الجمعة)، وكذلك: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾ (العنكبوت).

فمطلوب من المسلم أن يسعى في طلب الرزق، ويعلم أن الرزق من عند الله؛ فيتوكل على الله في طلب الرزق كما أرشد الرسول ﷺ: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**» (السلسلة الصحيحة).

سألني بطريقته المنطقية:

- وهل العملية مضمونة؟ أعني إذا فعل كذا حصل كذا؟

- نعم، وإذا تخلف الرزق فإن السبب تخلف شيء من أسبابه، وبالطبع هناك آداب تلازم العبد في طلب رزقه، مثلاً يعلم يقيناً أن الرزق بيد الله ينزله بحكمة على من يشاء.. أحياناً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ (آل عمران)، و﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢﴾ (العنكبوت)، فهو سبحانه الذي يوسّع على من يشاء في الرزق، ويقدر على من يشاء، لا عشوائية في ذلك - تعالى الله عن ذلك - ولكن بناءً على أنه: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، ويعلم العبدُ يقيناً أن رزقه سيصل إليه فلا يستبطئ الرزق، ولا يطلبه بالحرام كما نبه النبي ﷺ: «**لا تستبطئوا الرزق فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزق هو له؛ فأجملوا في الطلب: أخذ الحلال وترك الحرام**» (السلسلة الصحيحة)، ولا يزدري نعمة الله عليه مهما قلّت: «**انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**» (مسلم).

- وإذا بذل الإنسان الأسباب، وأصابه الفقر؟

- يعلم أنه اختبار من الله؛ تكفيراً للذنوب، أو رفعاً للدرجات، فإن الله يعطي الدنيا للمؤمن والفاجر والكافر، بل ربما كان حظ الكافر أكثر من حظ المؤمن، فلا يعترض المؤمن على منع الله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾ (الفجر)، بل يصبر المؤمن إذا ابتلي بالفقر، وينظر في نفسه إن كان تخلف عن بذل بعض أسباب طلب الرزق ويدعو الله صادقا.

- وهل للإنسان أن يسأل الله الدنيا؟

- وما العيب في ذلك؟! من أكمل الدعاء: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ فلا عيب في طلب الرزق في الدنيا، بل قرنه الله بالجهاد في سبيله، كما في سورة المزمل: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ (المزمل).

فليس عيباً طلب الدنيا، والمال فضل من الله يؤتيه من يشاء، والمال الصالح عون للعبد على طاعة الله، وإنما العيب أن يطلب المرء المال من حرام، أو أن يفتتن بالمال عن طاعة الله.

ما لن نُسأل عنه

أشك أن العاقل يشغل نفسه أو يضيع وقته فيما لن يسأل عنه يوم القيامة.. ولاسيما أن الذي سيُسأل عنه واضح بيّن ويمكن أن يشغل كل أوقاته ويزيد.

كنت أتهيأ للإجابة عن سؤال شقيقتي حول ترتيب الأنبياء في السماء عندما مر عليهم الرسول ﷺ في رحلة المعراج.

- نلتزم بما ورد في الأخبار الصحيحة.. من باب الإيمان بما ثبت، من قضايا الغيب، كقاعدة عامة، أما أن ندخل في تفاصيل لم تثبت، فهذا من إضاعة الوقت فيما لا فائدة منه.

- ولكن أطفالنا يأتون بأسئلة من مدارسهم حول ترتيب الأنبياء، وتاريخ الإسراء والمعراج، وعدد الأنبياء الذين صلى بهم الرسول ﷺ، وهكذا، ويطلبون منا الإجابة عن هذه الأسئلة ليشاركوا في المسابقة.

- أنا لا أنتقد سؤالك ولكن أبيّن للفائدة، وهذا ما فعله الرسول ﷺ عندما سأله ذلك الرجل: «**متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله.. قال: أنت مع من أحببت**» متفق عليه.. فبيّن الرسول ﷺ أنه لا ينبغي أن يكون همّ الإنسان وقت قيام الساعة؛ لأنه ليس من شأن أحد.. بل الذي يهم ما يعدّه الإنسان لقيام ساعته.. (موته).. وهكذا بالنسبة للإسراء والمعراج فهي رحلة تفضل الله بها على رسوله ﷺ ليريه من آياته الكبرى.. يثبته.. يسليه.. يريه من أنباء الغيب فيراه عين

اليقين.. فنؤمن بالأخبار الصحيحة الثابتة.. ولكن أعظم ما يمكن أن نتمسك به من رحلة الإسراء، تعظيم شأن الصلاة والمحافظة عليها، فهي العبادة الوحيدة التي فرضت في السماء، وبيّن الرسول ﷺ جزاء من ينام عنها.. فرآهم ﷺ ترضخ رؤوسهم بالحجارة، وذلك أن رؤوسهم كانت تتثاقل عن الصلاة المكتوبة، وهذا سيكون يوم القيامة، وكذلك رأى جزاء من يطلق الكذبة فتنتشر في الآفاق، تشرشر أفواههم إلى أقفيتهم.. مرة إلى هذه الجهة ومرة إلى الجهة الأخرى، وكذلك جزاء من يحمل الأمانات ولا يؤديها، وهكذا، نؤمن بهذه القضايا أنها من الغيب، ونعمل على تجنبها، هكذا نحقق المراد من هذا الحدث العظيم الذي ابتدأ اللّه ذكره بقوله ﴿**سبحان**﴾.. دليل تنزيهه وتعظيمه.

- لدي سؤال آخر.. آمل ألا يكون (فيما لن نُسأل عنه).. عندما قال ﷺ: إنه سمع صريف الأقلام.. هل هذا هو القدر الذي تكتبه الملائكة؟ وإذا كان كذلك أليس القدر قد كتب قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة؟!

- إن صريف الأقلام الذي سمعه الرسول ﷺ هو ما تكتبه الملائكة.. وهو ما ينزل من اللوح المحفوظ على مراحل وإلا فكل شيء قد كتبه اللّه قبل خلق السموات والأرض، وهذا الذي تكتبه الملائكة ينزل من السماء السابعة إلى السماء الدنيا، سنوياً، ثم ينزل إلى الدنيا وفق ما أراد اللّه تعالى، وهذا يدخل ضمن الإيمان بالقضاء والقدر الذي ربما نفصله في جلسة أخرى إن شاء اللّه.

وما فائدة الدعاء؟!

بهذا التساؤل الاستنكاري فاجأني صاحبي ونحن نغادر المسجد بعد أداء التراويح تعقيباً على دعاء إمامنا لإخواننا في بلاد الشام.. أن يحقن الله دماءهم ويبدل خوفهم أمنا.

- ماذا تعني بـ «ما فائدة الدعاء»؟

- القضايا الدولية تتحكم فيها الدول العظمى ولاسيما الولايات المتحدة، هي التي تحرك أحجار الشطرنج في عالمنا العربي، وإذا أرادت تغيير الحكم في سوريا.. تستطيع ذلك.

- وأين الله؟!

سكت، فتابعت حديثي:

- ما تقوله خطر في المعتقد ويناقض الإيمان.. لا أحد ينكر دور الدول الكبرى فيما يدور من أحداث، ولكن المؤمن يعلم يقيناً أن إرادة الله هي النافذة في كونه.. ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ (السجدة)، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (آل عمران) ولا شك أن الله جعل لكل شيء سبباً.. حتى تستقيم حياة البشر على الأرض، ومن الأسباب، بل من أقوى الأسباب لنيل المطالب.. الدعاء.

فالمؤمن يعلم يقيناً أن لا غنى له عن الله، ولا لطرفة عين.. فيلجأ إلى الله.. على الدوام.. إن لم يكن بدعاء المسألة.. يكون بدعاء العبادة.

- وما الفرق؟!

- دعاء العبادة، هو إلتزام أوامر الله وطاعته.. كما قال تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ (غافر).. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ (غافر).. فأمر عباده بالدعاء، وحذر الذين يستكبرون عن العبادة، فهذا دعاء العبادة.. أما دعاء المسألة فهو أن يتوجه العبد إلى الله طلباً لحاجة، فيثني على الله ويحمده ويصلي على رسول الله ﷺ.. ثم يطلب حاجته، والنوعان متداخلان، متلازمان.. كل منهما يقتضي الآخر.

والأنبياء جميعا دعوا الله عز وجل.. ابتداء من آدم.. ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأعراف).. وأدعية إبراهيم ﷺ كثيرة في القرآن.. وزكريا وعيسى ومحمد ﷺ.. ولعل من المشهور دعاء يونس (ذي النون) في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء) والذي أخبر عنه النبي ﷺ: «**ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلايا الدنيا دعا به يفرج عنه؟ فقيل له: بلى، فقال: دعاء ذي النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**» السلسلة الصحيحة.

كان صاحبي يستمع وربما شعر بخطورة مقولته الأولى.. تابعت:

- فلا ينبغي لمسلم أن يظن أن لا فائدة من الدعاء.. فضلاً عن أن يقول ذلك، ففي الحديث: «**من لم يَدْعُ الله يغضب عليه**» السلسلة الصحيحة.

ولا شك أن إخواننا المضطهدين في بلاد الشام بحاجة إلى كل عون ممكن، وليس أقل من أن ندعو لهم، وفي هذا الشهر الكريم.. الدعاء أقرب للإجابة، فقد قرن الله آيات الصيام بآيات الدعاء: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (البقرة) والآية تبين تلازم دعاء العبادة ودعاء الحاجة حيث أمرهم بالدعاء.. والاستجابة لأوامر الله والإيمان به عز وجل.

ثم نقطة أخيرة.. أن من غايات تعريف الله لنا بأسمائه الحسنى أن ندعوه بها ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (الأعراف)، فيختار العبد من أسماء الله الحسنى ما يناسب المقام ويدعو الله به بل رغَّبنا الرسول ﷺ أن ندعو باسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به استجاب وإذا سئل به أعطى.

- أقر أنني أخطأت بمقولتي.. أسأل الله ألا تكون من ذلك الكلام الذي يستوجب غضب الله.. فتهوي بصاحبها في قعر جهنم سبعين خريفاً.. (السلسلة الصحيحة).

الرزق كالموت.. لا يتقدم ولا يتأخر

عجيب أمر هذا الإنسان، عندما يموت له قريب أو يعزي صديقاً، يقول: «أتت ساعته.. وحانت لحظة موته، فلا يُرد ولا يُؤجل».. وينسى هذه الحقيقة عندما يفوته شيء من الرزق..

- إن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، لا يكون مؤمناً من ينكره، بل يخرج من دائرة الإيمان إلى الكفر، والعياذ بالله، والإيمان بالقدر يقوّم حياة الإنسان، ويجعله يتعامل مع الدنيا بكل ما فيها بصورة صحيحة، وذلك أن كل ما في الدنيا ابتلاء من الله عز وجل، ولما كان طلب الرزق شاغلاً لكثير من الناس إما بطلب الزيادة ولو بالحرام.. أو بالامتناع عن الواجب، خوفاً من قلة الرزق.. بيَّن الله عز وجل قضية الرزق أوضح بيان.. فقال عز وجل.. ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وبيّن النبي ﷺ معنى هذه الآية بقوله ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي: إن نفساً لا تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإن الله لا يدرك ما عنده إلا بطاعته**» (السلسلة الصحيحة) وقال ﷺ: «**خلق الله كل نفس فكتب حياتها وموتها ومصيباتها ورزقها**» (السلسلة الصحيحة).

- ولكن الناس يرون أنهم إذا دفعوا الرشاوى فازوا بالصفقات التجارية، وإذا سلبوا من الأموال العامة ازدادت ثرواتهم، وتمتعوا بهذه الدنيا.

قاطعته.

- ألم يخبر رسول الله ﷺ: «**إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال**» (السلسلة الصحيحة).

هذا الذي يفكر بهذا المنطق ويتصرف بهذا الأسلوب إنما يوقع نفسه في الفتنة، التي حذر منها الرسول ﷺ، فليتحمل عاقبة أمره، ابتداء من القبر ونهاية بعد الحساب.

- وماذا عن ذاك الذي يمتنع عن أداء حق المال؟ ويحتج بأن الأرزاق من عند الله..

- ألم يخبر الله عز وجل عن مثل هؤلاء فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ (يس).

فهذا منطق الكافرين، أما المؤمن فعقيدته، «**ما نقص مالُ عبدٍ من صدقة**».. وفي رواية.. «**لا ينقص مالٌ من صدقة، فتصدقوا**» كلاهما صحيح الترغيب والترهيب.

- والمعنى؟

- لا شك أن الرزق همّ كل إنسان، يسعى دائماً للاستزادة منه، والفرق بين المؤمن وغيره، أن المؤمن لا يأخذ رزقاً إلا من حلال، ولا يزيده إلا بما شرع الله، لأنه يعلم أن رزقه سيأتيه وإن تأخر «فيجمل في الطلب»، ويخرِج حقَّ الله من ماله، لأن حق الله لا يُنقص الرزق، ويؤمن

بأن الأرزاق بيد الله كما الآجال، فلا يحزن على ما فات، ولا يفرح بما أتى.. فالجميع رزقه بيد الله يقسمه كيف يشاء بحكمته.. ويسأل الله زيادة الرزق والبركة فيه.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ (هود)، فالرزق بالنسبة له وسيلة ابتلاء.. واختبار يجتهد أن ينجح فيه.

سُنَّة الابتلاء

- الابتلاء.. الاختبار والامتحان.

- الفتنة.. ابتلاء آلت نتيجته إلى سوء.

من سنن الله الكونية التي لا تتبدل ولا تتحول.. ابتلاء جميع خلقه.. بمعنى امتحانهم.. امتحاناً عادلاً لا ظلم فيه.. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ (الملك)، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ (الكهف).

- إن كلمة (بلاء) توحي بالمصيبة..

كنت وصاحبي في طريقنا لعزاء أحد زملائنا في العمل فقد ابنته ذات الخمسة أشهر؛ في المعجم الوسيط: البلاء: الحادث ينزل بالمرء ليختبره.. وجرى عرف الناس أن يعدوا المصائب ابتلاءً.. بينما الشريعة تبين أن الابتلاء يكون بالخير والشر.. وربما كان الاختبار بالخير أشد.. فتكون فتنة: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾، فالحياة كلها ابتلاء (امتحان).. واختبار الإيمان أشد من الاختبار العام.

- ماذا تعني باختبار الإيمان؟

- يقول عز وجل: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ (العنكبوت).

وفي تنوع أدوات الاختبار.. يقول عز وجل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ (البقرة)، وكذلك يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) ﴾ (الأنعام).

فأدوات الاختبار كثيرة.. وتكون فيما تحبه النفس أو تكرهه.

- وهل يزيد الاختبار (البلاء) مع زيادة الإيمان؟

- نعم.. في الحديث: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يُبتلى الرجل على حسب (قدر) دينه؛ فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**» السلسلة الصحيحة.. ويذكّر الله عباده المؤمنين بسنة الابتلاء فيقول: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ (البقرة).

قاطعني مستفسرا:

- ولكن ألا يكون العذاب وتتنزل المصائب بسبب الذنوب؟

- هذا سبب رئيس للمصائب: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) ﴾ (الشورى)؛ لذا وجب على من تقع عليه المصيبة أن يراجع نفسه ليرى «هل من ذنوب؟».. فيستغفر ويتوب،

وإن لم يكن من أصحاب الذنوب يستغفر.. ويصبر على أنه ابتلاء من اللّه تعالى.. كما بيّن النبي ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن اللّه إذا أحب قوماً ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**» السلسلة الصحيحة.

نحتاج المصائب.. أحياناً

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾..

إلتقيت صاحبي بعد غياب ثلاثة أشهر.. كان حينها منكسر النفس شارد الذهن.. مكتئب الحال.. ذلك أنه خسر قضية مالية وجنائية في حكم أول درجة.. كان مظلوماً فيها.. كما أنه كان يعاني مشكلات صحية لم يعرف لها سبباً.. قضيت معه أسبوعاً بصفة يومية أخفف عنه همومه. كان يحدثني عن عزمه التقليل من العمل للدنيا مع البرمجة للتوقف تماماً بعد أربع سنوات عندما يبلغ الستين.. والإكثار من العمل للآخرة.. والاستعداد ليوم المعاد.

عندما إلتقيته هذه المرة كان منفرج الأسارير.. مرتاح البال.. يتحدث بثقة وتفاؤل عن عزمه السفر إلى الصين لتوقيع عقد جديد مع شركة كبرى في مجال الإلكترونيات، وأنه سيوسع عمله ليشمل المغرب العربي بعد أن انتهى من أفريقيا.

قلت في نفسي:

- سبحان الله.. هذا الذي كان قبل شهرين لا يريد الدنيا وكان يتضرع إلى الله عند بيته الحرام أن يخرجه من أزمته تلك.. وتذكرت قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الزمر).

- سأنتهي إن شاء الله من مراجعة الجزء الثاني من كتابي.. المراجعة النهائية ثم آخذه إلى المطبعة.. وسيظهر للقارئ بعد شهر إن شاء الله.

- وما فائدة أن يكتب الإنسان أو يقرأ بتعمق في قضايا العقيدة ولاسيما في باب الأسماء والصفات؟ يكفينا معرفة معنى «لا إله إلا الله محمد رسول الله» والتوحيد والشرك.

استغربت مقولة صاحبي.. فأنا أعرفه لأكثر من عشرين سنة ولم يكن هذا رأيه.

- الفائدة.. أن نعرف الله كما أراد لنا ذلك سبحانه.. وكلما زادت معرفة الإنسان بربه زاد خشية منه.. وحباً له.. واعتصاماً بحبله.. وتوكلاً عليه.. وتمكنت العقيدة في قلبه وانعكس كل ذلك على تصرفاته في عباداته وأخلاقه.. وكان بإذن الله من الفائزين يوم القيامة.

- أظن أن الاكتفاء بما ورد في الكتاب والسنة من عموميات دون دخول في التفاصيل يكفي لنا نحن عامة الناس..

- بالطبع.. يكفي عامة الناس معرفة أصول العقيدة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن القضاء خيره وشره من الله.. وأركان الإسلام الخمسة.. والأخلاق الفاضلة.. ومن أراد المزيد فسوف يجازى بالمزيد يوم القيامة.. وطلب العلم خير عبادة وخير زاد، وأشرف العلوم علم التوحيد.. لأن شرف العلم من شرف المعلوم.. لماذا يلجأ أحدنا إلى الله.. يتضرع.. يدعو.. يرجو.. حال المصيبة.. وفي حال الرخاء يستكثر قضاء الوقت في طاعة الله؟!

حقا.. المصائب لابد منها لبعض الناس حتى لا يبتعدوا عن الله عز وجل.

المطلوب.. أداء الفرائض وترك الكبائر

رغم أننا لا نلتقي كثيراً، إلا أننا على اتصال دائم بالهاتف ووسائل الاتصال الأخرى.

- إسْمع هذا الحديث الذي وجدته في صحيح الترغيب والترهيب: عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «**صعد رسول الله ﷺ المنبر، فقال: لا أقسم لا أقسم، ثم نزل، فقال: أبشروا أبشروا، من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر دخل من أي أبواب الجنة شاء، قال المطلب: سمعت رجلا يسأل عبدالله بن عمرو: أسمعت رسول الله ﷺ يذكرهن؟ قال: نعم: عقوق الوالدين، والشرك بالله، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وأكل الربا**» حسنه الألباني.

وفي رواية في مسند الإمام أحمد عن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «**من عَبَدَ الله لا يشرك به شيئاً وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان واجتنب الكبائر، فله الجنة**» أو «**دخل الجنة**»، فسأله: ما الكبائر؟ فقال: «**الشرك بالله وقتل نفس مسلمة والفرار يوم الزحف**» الأرناؤوط: حسن بمجموع طرقه.

- إنك تسهّل الموضوع وتيسره وأين قول أبي بكر: «والله لو كانت إحدى قدميّ في الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله»، وأقوال الصحابة في خوفهم من العذاب كما قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون)، حيث تسأل عائشة

- رضي الله عنها - عن هؤلاء، فيخبرها الرسول ﷺ أنهم يصلون ويصومون ويزكون ويخافون ألا يتقبل منهم؟!

- هذا الموضوع يحتاج إلى لقاء وجهاً لوجه.

وبالفعل بعد أيام إلتقينا وتطرقنا للموضوع مباشرة:

- دعني أبيّن أن المطلوب منّا: عمل، وعقيدة، أما العمل فهو ما جاء في الحديثين اللذَين ذكرت لك: أداء الأركان، واجتناب الكبائر، أما العقيدة فهي عدم التألّي على الله والاغترار بالعمل. نعم، نؤدي المطلوب منا، ولكن نخاف أيضاً من أن عملنا لم يقبل، فندعو الله أن يتقبل ولا يحبط أعمالنا ونؤمن بأن ملاذنا رحمة الله عز وجل، ولكن ينبغي أن نعلم أن الالتزام بالأركان وترك الكبائر عمل عظيم يحبه الله ويرضاه كما في حديث: «حق الله على العباد».

قاطعني:

- هل تذكر متن هذا الحديث وسنده؟

- هذا الحديث متفق عليه، حيث كان معاذ بن جبل رديف رسول الله ﷺ، فقال: «**يا معاذ**»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «**هل تدري ما حق الله على عباده؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**»، ثم سار ساعة ثم قال: «**يا معاذ بن جبل**»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، فقال: «**هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حق العباد على الله ألا يعذبهم**».. **(إن هم فعلوا ذلك)**.

وبالطبع نفهم أنه لا أحد له حقٌّ على الله إلاَّ أن الله تفضل وأحق على نفسه ألا يعذب من عَبَده لا يشرك به شيئاً وأتى بالأركان وترك الكبائر.

هز رأسه غير مقتنع:

- هكذا تجعل الموضوع سهلاً حتى كأنني أقول وقد علمت من نفسي أني أؤدي الفرائض وأجتنب الكبائر: إني مستعد للقاء الله اليوم، بل أفرح إذا متّ اليوم.

- لا تنس أن تتعلق برحمة الله وترجو القبول منه، وتخشى أنه لم يتقبل منك العمل الصالح بسبب رياء دخل قلبك أو خلل في ركن من أركان عبادتك، ولكن المطلوب من عامة المسلمين أن يعلموا أن الله عز وجل يريد منهم أداء الأركان وترك الكبائر، والتعلق برحمة الله مع حسن الظن بالله، حتى لا يَدَعوا باباً للشيطان أنهم مهما عملوا فلن يدخلوا الجنة، بل سينالهم العذاب على كل حال، فَلِمَ الحرص الشديد على الطاعات وترك المحرمات؟! ونقول: إن عقيدتنا أن من أدى الأركان وترك الكبائر ومات على عقيدة صحيحة، نرجو أن يدخل الجنة دون عذاب في النار برحمة الله عز وجل.

الصلاة في العبادات كالقلب

- في حديث النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» متفق عليه.

وفي الأوسط للطبراني عن عبداللّه بن قرط رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة؛ فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله**» صحيح لغيره، الألباني.

كنت وصاحبي نبحث عن مكان هادئ نأكل فيه وجبة خفيفة بعد أن أدينا التراويح ليلة العاشر من رمضان، كان صاحبي يعرض علي فكرة (مقارنة القلب بالصلاة) أعجبني ما توصل إليه:

- جميل هذا الربط بين الحديثين.

- بل اطلعت على تفصيل آخر بأن الصلاة هي السبيل الوحيد للنجاة في الدنيا والقبر والحشر وحتى في جهنم - والعياذ باللّه - بعد التوحيد طبعاً.

طلبت زيادة توضيح من صاحبي، وطلبت أن يبدأ من آخر ما قاله:

- في جهنم - نسأل اللّه أن ينجينا منها فلا ندخلها مطلقاً- حرّم اللّه على النار أن تأكل أثر السجود. متفق عليه، كما حرم على النار أن تحرق قلباً فيه شيء من القرآن «**لو جُعل القرآن في إهاب ثم ألقي في النار ما احترق**» السلسلة الصحيحة.

- وهذا ربط آخر جميل.

- واسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (العنكبوت)، يُلقي الشيطان في فهم بعض الناس ألاَّ تصلوا لأنكم تقعون في المعاصي، ويستشهد بعضهم بـ«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا»، وهذا حديث باطل لا يصح عن رسول الله ﷺ، بل المعنى الصحيح للآية أن المسلم إذا حافظ على صلاته وإن كان يقع في بعض المعاصي فإن استمراريته على الصلاة ستمنعه يوماً كما فسره الرسول ﷺ عندما قيل له: إن فلانا يصلي الليل كله فإذا أصبح سرق، فقال: «**ستمنعه صلاته**» رواه أحمد وغيره بإسناد صحيح، الألباني.

بلغْنا المكان الذي نريد، تابع صاحبي حديثه الشيق بعد أن ترجلنا من المركبة:

وفي المحشر تجعل الصلاة المصلي في ظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله «**ورجل قلبه معلق بالمساجد**» متفق عليه، أما في القبر.

فعن أبي هريرة أيضاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولوا مدبرين فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه وكان الصيام عن يمينه وكانت الزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه فيؤتى من قبَلِ رأسه فتقول الصلاة ما قِبَلي مدخل ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام ما قِبَلي مدخل ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة ما**

قِبَلي مدخل ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والمعروف والإحسان إلى الناس ما قِبَلي مدخل». (حسنه الألباني).

وأصحاب الصلاة يكونون غُرًّا محجلين فيعرفهم الرسول ﷺ فيرِدون عليه الحوض في المحشر.

استدركت عليه:

- ولكن ليست كل صلاة لها هذا الثواب العظيم.

- الصلاة الصحيحة المقبولة عند الله، وفي الواقع أَمَرَنَا الله عز وجل في كتابه بثلاثة أمور تتعلق بالصلاة: إقامتها، والمحافظة عليها، والدوام على ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾ (المعارج)، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤﴾ (المعارج).

الصيام

تنفيذاً لاتفاقنا أن نعتمر أربع مرات كل عام، قضينا أربعة أيام في مكة وأدينا - بفضل الله - جميع الصلوات في المسجد الحرام.

- فرقٌ بين أن تؤدي العمرة مع نساء، وأن تكون برفقة صحبة مثلك.

- لا شك أن لكل صحبة أجرها، عندما تعتمر مع الوالدة أو الزوجة والأولاد، تنشغل بهم، وقلّما تتحصل فترة تكون فيها متفرغاً للعبادة والطاعة، أما إذا كنت وحدك فإنك تملك وقتك.

كنت وصاحبي بانتظار صلاة المغرب.

بعد الصلاة اقتربنا من أحد المشايخ، اتخذ كرسياً في صحن المسجد الحرام، وكان حديثه عن الصيام.

- تدبروا بدايات آيات الصيام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، هذه الصفة المحببة لكل واحد منا ينادينا بها اللّه عز وجل تذكيراً لنا بأهم ما نرجو أن نتميز به (الإيمان) ومن مِنّا لا يحب أن يوصف بالإيمان؟! فبدأت آيات الصيام بهذا النداء من اللّه - عز وجل - للمؤمنين، وتذكُر الآيات أموراً لتسهيل هذه العبادة على المؤمنين؛ فيخبرهم اللّه عز وجل أن هذه العبادة مارسها من سبقهم من المؤمنين، فلا تكليف جديداً عليهم وغيرهم ليسوا أفضل منهم في جميع الأديان السابقة، والغاية تحصيل التقوى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (البقرة).

ولا شك أن كل مؤمن يسعى ويجتهد ليتحصل التقوى، فيسّر الله عليهم هذا الأمر بأن أمرهم بالصيام، فدلَّهم على الخير، وأمرهم به لينتفعوا هم به، ثم بيّن سبحانه تيسيره عليهم بأن جعله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة: ١٨٤)، وذكر لهم الأسباب المبيحة للفطر.

تابعنا الدرس إلى صلاة العشاء وأدينا الصلاة، ثم خرجنا نريد العَشاء.

– كان درساً ممتعاً رغم أن الموضوع تقرؤه دائماً وتسمعه كثيراً، إلا أن الشيخ – حفظه الله – وفق في تناوله بطريقة جديدة بالنسبة لي على الأقل.

– نعم.. وأظنه لو سمح له الوقت لذكر الجوانب الإيمانية الأخرى في الصيام بأن: «**إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة وغُلقت أبواب النار وصفدت الشياطين**» (مسلم)، وأن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به**» (متفق عليه)، وأن أبا أمامة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله مرني بعمل، قال ﷺ: «**عليك بالصوم فإنه لا عدل له**»، قلت: يا رسول الله مرني بعمل، قال: «**عليك بالصوم فإنه لا عدل له**»، قلت: يا رسول الله مرني بعمل، قال: «**عليك بالصوم فإنه لا مثل له**» (صحيح الترغيب والترهيب).

– قررنا تناول العشاء بعيداً عن المطاعم القريبة من الحرم لشدة زحام الناس عليها وجهلنا بجودة المأكولات فيها.

– أحاديث الصيام تثبّت العزيمة والإرادة في قلوب المؤمنين، ألم تسمع

الشيخ يذكر ذات الحديث ولكن برواية أخرى عن أبي أمامة قال، قلت: يارسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة، قال: «**عليك بالصوم فإنه لا مثل له**» (ابن حبان وصححه الألباني).

- بالطبع فإن النفس البشرية تحتاج إلى ما يدفعها للعمل، ولا شك أن في الصوم مشقة وتعباً، لاسيما في موسم الصيف - كما هو هذا العام - ولكن إذا تذكر العبد الأجر والثواب والمنفعة الدنيوية والأخروية، فإن ذلك يعينه على أداء هذه العبادة وهو راغب في الأجر محتسب للثواب.

- قاطعني:

- لقدأعجبني قول الشيخ: إن المؤمن يحتسب على الله ولا يحسب على الله.

- نعم.. في الحديث: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه**» (البخاري)، أي يفعل الطاعة ويرجو أجرها من الله، أما الحساب فهو أن يقول: قرأت عشرين كلمة من القرآن في كل كلمة بالمتوسط أربعة أحرف إذاً (٢٠×٤)= ٨٠ حرفاً، وكل حرف بعشر حسنات، إذاً المجموع (٨٠٠) حسنة، أو يقول: أنا أخطو خمسمئة خطوة إلى المسجد، كل خطوة ترفع درجة وتحط سيئة، إذاً ارتفعت خمسمئة درجة، ومحيت عني خمسمئة سيئة، هذا المنطق لا ينبغي أن يستعمله المرء مع الله عز وجل، وإنما ذكر الله بعضه تيسيراً على النفس البشرية، كقوله عز وجل: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ (البقرة)، ولعلنا نبحث هذا الأمر بإسهاب مرة أخرى.

واحتساباً

الأحاديث في فضل صيام رمضان وقيامه مع تخصيص ليلة القدر أحفظها، ولكن لا أعلم من خرّجها.

- تعال نبحث في الجهاز، فلا أسهل من هذه العملية بفضل الله تعالى.

كنت وصاحبي في مجلس بعد صلاة العصر نتناقش في شرح بعض الأحاديث من كتاب: «**المعتمد المنقول من أقوال الرسول** ﷺ» في فضل سور القرآن وآياته.

جلست قبالة الحاسوب، وما هي إلا دقائق وإذا بالأحاديث تظهر على الشاشة.

«**من يقم ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه**» البخاري، «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه**» البخاري، «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه**» البخاري، وكذلك جاءت عند مسلم.

وفي إحدى روايات مسلم عن أبي هريرة: كان رسول الله ﷺ يرغّب في قيام رمضان من غير أن يأمرهم فيه بعزيمة، فيقول: «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**».

- قاطعني:

- وهل ورد وصف «إحتساباً» في غير الصيام وقيام رمضان؟

رجعت إلى جهازي مرة أخرى.

- نعم.. «**من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً، وكان معه حتى يُصلى عليها ويفرغ من دفنها؛ فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أحُد، ومن صلَّى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فإنه يرجع بقيراط**» البخاري، وكذلك في (الصحيحة) للألباني: «**من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً فإن شبعه وروثه وبوله في ميزانه حسنات**».

وجاءت هذه الأحاديث في بعض كتب السنن، قال النووي: (إيماناً): تصديقاً بأنه حق، معتقداً فضيلته، و(احتساباً) يريد به الله تعالى وحده، لا يقصد رؤية الناس ولا غير ذلك مما يخالف الإخلاص.

هناك حديث سمعته قبل يومين في الإذاعة: «**من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة، قالت امرأة: أو اثنين؟ قال: أو اثنين**».

رجعت إلى جهازي.

- نعم هذا الحديث في السلسلة الصحيحة للألباني، وفي زيادة قالت المرأة: «**يا ليتني قلت واحداً**»، وفي صحيح مسلم، قال ﷺ في صوم عاشوراء: «**إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي بعده**» وفي صيام عرفة: «**احتسب على الله أن يكفّر السنة التي قبله والسنة التي بعده**» مسلم، وفي حديث آخر إن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيّه من أهل الأرض، فصبر واحتسب، بثواب دون الجنة**» وحسنه الألباني.

وفي صحيح الجامع: «**عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر، وإذا أصابه خير حمد الله وشكر، إن المسلم يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه**»، وفي فقدان البصر يقول الله تعالى

كما جاء في الحديث: «**من أذهب حبيبتيه فصبر واحتسب، لم أرض له ثواباً دون الجنة**» صحيح الجامع، وعن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أصابت أحدكم مصيبة فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتي، فأجرني فيها وأبدل لي بها خيراً منها**» مسلم، وصحيح ابن ماجه.

- لنبحث في معاجم اللغة عن الاحتساب.

وبالفعل، رجعنا إلى مكتبتنا الرقمية.

- قال ابن السكيت «احتسب فلان بنين: إذا ماتوا له كباراً واحتسب الأجر بصبره»، و(احتسب) عند الله خيراً، اعتدّه فيما يدخره الله له، ومن ذلك (يحتسب) صومه عند الله، أي: يرجو أن يدخره الله له، فيجد أجره إذا لقي الله عز وجل.

وفي «لسان العرب»: والاحتساب من الحسب، وإنما قيل لمن ينوي بعمله وجه الله: (احتسبه)... و(الاحتساب) في الأعمال الصالحات وعند المكروهات هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً للثواب المرجو.

فالاحتساب في الصيام هو رجاء نيل ثوابه الذي هو الدخول من باب الريان، ومغفرة ما سبق من ذنوب والأجر الذي وعد الله به بقوله عز وجل في الحديث القدسي: «**إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**» البخاري.

الحج.. رحلة إيمانية

- ندرك الجانب الإيماني في الصلاة، وفي الصيام، ولكن في الحج يكون المرء مشغولاً بأداء المناسك، وفي معظمها يكون في زحام وشدة وتعب؛ فلا مجال للخشوع والإيمانيات، وإنما يريد أحدنا أن ينتهي من النسك بطريقة صحيحة حتى تسقط عنه هذه الفريضة العظيمة.

بهذه الكلمات علق صاحبي على وصفي الحج بأنه رحلة إيمانية، وهو من النوع الذي يقول ما يخطر على باله.. إلتفتُّ إليه:

- ولذلك وجب على المؤمن أن يتذكر الجوانب الإيمانية في الحج قبل أن يغادر؛ فإن التفاوت في أجر العبادات يكون على ما في القلوب؛ فالجميع يؤدي الصلوات خلف إمام واحد والجميع يُتِم صلاته، ولكن شتان بين أجر هذا وذاك، وكذلك أجر الصيام، الجميع يمسك من الفجر إلى الليل، ولكن شتان بين أجر هذا وذاك، وكذلك الحج، الجميع يقف بعرفة ويبيت بمزدلفة ويطوف بالبيت ويرمي الجمرات ويقدم الهَدْي ويحلق، ولكن شتان بين أجر هذا وذاك؛ فإذا كان المرء سينشغل بأداء المناسك أيام الحج، فالأحرى به أن يحفظ إيمانيات الحج قبل أن يغادر.

أظهر صاحبي قناعته بما قلت.

- وماذا تعني بـ «إيمانيات الحج»؟

- دعني أذكر لك حديثاً طويلاً يذكر ما يتعلق بالحج من قضايا غيبية، ثم نتحدث عن التفاصيل؛ فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت جالسا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجد منى، فأتاه رجل من الأنصار ورجل من ثقيف فسلّما

ثم قالا: يا رسول الله جئنا نسألك، فقال ﷺ: «**إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه فعلت، وإن شئتما أن أمسك وتسألاني فعلت**» فقالا: أخبرنا يا رسول الله، فقال الثقفي للأنصاري: سل، فقال: أخبرني يا رسول الله، فقال ﷺ: «**جئتني تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام وما لك فيه، وعن ركعتيك بعد الطواف وما لك فيهما، وعن طوافك بين الصفا والمروة وما لك فيه، وعن وقوفك عشية عرفة وما لك فيه، وعن رميك الجمار وما لك فيه، وعن نحرك وما لك فيه مع الإفاضة**»، فقال: والذي بعثك بالحق لَعَنْ هذا جئت أسألك.

قال: «**فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خُفًّا ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ومحا عنك خطيئة، وأما ركعتاك بعد الطواف فكعتق رقبة من بني إسماعيل عليه السلام، وأما طوافك بالصفا والمروة فكعتق سبعين رقبة، وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله ينزل إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة يقول: عبادي جاؤوني شعثاً من كل فج عميق، يرجون جنتي، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو كقطر المطر أو كزبد البحر لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولمن شفعتم له، وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات، وأما نحرك فمذخور لك عند ربك، وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ويُمحى عنك بها خطيئة، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك**»، **يأتي ملك حتى يضع يديه بين كفيك فيقول: اعمل فيما تستقبل فقد غفر لك ما مضى**» (السلسلة الصحيحة).

- هذا حديث جميل، يجب على كل حاج أن يعرفه، بل يحفظه حتى لا ينساه وهو يؤدي المناسك.

- نعم.. مع أحاديث أخرى تُعِين الحاج على أداء المناسك بطريقة إيمانية ينال معها الأجر العظيم، مثل قول النبي ﷺ: «**الحجاج والعمار وفد الله دعاهم فأجابوه وسألوه فأعطاهم**» (حسنه الألباني).

وكذلك الحديث القدسي: «**إن الله يقول: إن عبداً أصححت له جسمه ووسعت عليه في المعيشة تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إلي.. محروم**» (صححه الألباني).

- ولكن مضت أكثر من عشر سنين على آخر حجة لي.

- ألم تكن في العمرة في شعبان الماضي؟!

- نعم.

- إذًا لم تمض عليك خمس سنوات لم تفد إلى الله! فالمقصود الذهاب إلى الحج أو العمرة، بدليل حديث: «**الحجاج والعمار وفد الله**».

- ارتاح صاحبي لما سمع.

الحج.. رحلة التوحيد

في سورة البقرة يقول تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ (البقرة)، وفي سورة الحج: يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًۭٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ (الحج) .. ولا شك أن أعظم تطهير.. سواء للقلوب أم للأماكن إنما يكون بتطهيرها من الشرك.. وتحقيق التوحيد لله عز وجل.

كان الشيخ يلقي خاطرة في أول أيام ذي الحجة عن غايات الحج:

- فأعظم غاية في الحج هي تحقيق التوحيد.. والثانية هي الاتباع.. أول ما يبدأ به العبد.. هو: «**لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك**».. وفي اللغة: (لبيك).. أنا مقيم على طاعتك إلباباً بعد إلباب وإجابة بعد إجابة.. و(سعديك).. إسعاداً بعد إسعاد.. وفي الجاهلية كانوا يلبون: «**لبيك لا شريك لك.. إلا شريكا هو لك.. تملكه وما ملك**».. وكان أهل كل قبيلة يعظمون صنمهم في التلبية.. فجاء التوحيد.. ليجعل التلبية.. لله وحده لا شريك له.. «**إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**».. وهذا الشعار في الحج.. لا ينقطع حتى يرمي الحاج جمرة العقبة الكبرى يوم العاشر من ذي الحجة.. حيث يستبدل به شعاراً آخر: «**الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله.. الله أكبر الله أكبر ولله الحمد**».. في الأيام المتبقية من الحج حتى يغادر إلى بلده.

تابع الشيخ كلامه.. الذي امتلأ حماسة مما جعل أغلب المصلين يمكثون في أماكنهم يستمعون:

- التوحيد والاتباع سبيل النجاة.. في كل نسك في الحج.. في الطواف والسعي والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ورمي الجمرات والهدي وطواف الإفاضة والمبيت بمنى.. كلها توحيد لله.. واتباع للرسول ﷺ: «**خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**» الألباني (صحيح الترمذي)، وبعد أن يبيت الحجيج في مزدلفة يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ (البقرة).

وأفضل الذكر كما في حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**» حسنه الألباني.

فالذين يزعمون أن المسلمين يعظمون (حجراً) فيطوفون (حوله).. ويرمون (حجراً على حجر).. ويقَبِّلُون (حجراً).. إنما يقولون ذلك حقداً وحسداً كما قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ (البقرة).

بشارات الحجيج

- كثير من الناس لا يعرفون مِن فضل الحج إلا حديث: «**والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**» متفق عليه، وحديث: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**» متفق عليه، مع أن الأحاديث الصحيحة في بيان أجر الحاج كثيرة.

- معظم الناس يؤدي الحج من باب إكمال الدين وأداء ركن من أركان الإسلام.. وفعلاً أنا من الذين لا يذكرون في فضل الحج إلا هذين الحديثين.. وربما حديثاً ثالثاً في أن: «**الحجاج وفد الله**».. ولا أحفظ نصه.

كنت وصاحب في مهمة قصيرة بعد صلاة العشاء لشراء بعض حاجيات المنزل من سوق وسط المدينة.

- تعني حديث النبي ﷺ: «**الحجاج والعمار وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم**» حسنه الألباني.. وفي رواية عند النسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم**».. (صححه الألباني).

- نعم هذا الحديث.. ولا أعرف غير هذه الأحاديث.

- إذاً استمع إلى هذا الحديث الشامل في فضل الحج وأجر الحجاج.. روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: **كنت جالساً مع النبي ﷺ في مسجد منى (مسجد الخيف) فأتاه رجل من الأنصار ورجل من ثقيف، فسلما**

ثم قالا: يا رسول الله جئنا نسألك، فقال: إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه فعلت وإن شئتما أن أمسك وتسألاني فعلت، فقالا: أخبرنا يا رسول الله، فقال الثقفي للأنصاري: سل، فقال: أخبرني يا رسول الله، فقال: جئتني تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام وما لك فيه، وعن ركعتيك بعد الطواف وما لك فيهما، وعن طوافك بين الصفا والمروة وما لك فيه، وعن وقوفك عشية عرفة وما لك فيه، وعن رميك الجمار وما لك فيه وعن نحرك وما لك فيه مع الإفاضة، فقال: والذي بعثك بالحق عن هذا جئت أسألك.

قال ﷺ: فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفا ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ومحا عنك خطيئة، وأما ركعتاك بعد الطواف فكعتق رقبة من بني إسماعيل عليه السلام، وأما طوافك بالصفا والمروة فكعتق سبعين رقبة، وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة، يقول: عبادي جاؤوني شعثا من كل فج عميق، يرجون جنتي، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو كقطر المطر أو كزبد البحر لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفورا لكم ولمن شفعتم له، وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات وفي رواية: وأما رميك الجمار فقال الله عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾، وأما نحرك فمذخور لك عند ربك، وأما رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ويمحى عنك بها خطيئة، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك، يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول اعمل

فيما تستقبل فقد غفر لك ما مضى». رواه الطبراني في الكبير والبزار واللفظ له (قال الألباني: حسن لغيره).

لم يُخفِ صاحبي إعجابه واستغرابه:

- هذه أول مرة أسمع هذا الحديث.. إنه جميل ورائع، وفيه من الأجر ما يجعل المرء يود أن يكون حاجاً كل عام.

- ما أكثر ما شد انتباهك في الحديث؟!

- كله.. ولاسيما أجر رمي الجمرات: «**فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات**».. طبعاً ما لم يكن فيه حقٌّ للعباد.

- نعم هذا صحيح.

- وكذلك أجر الطواف الأخير. «**يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول: اعمل فيما تستقبل فقد غفر لك ما مضى**».. اللهم ارزقنا حجّاً فيه كل هذا الأجر غير منقوص.

معجزة القرآن

أخطأ إمامنا في صلاة الفجر، وكان يقرأ من أواخر سورة مريم، فقرأ: «وما ينبغي للرحمن أن يكون له ولد»، بدلا من: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ (مريم).. انتظرته بعد الصلاة.

قبل أن أفتح الموضوع معه بادرني:

– أعلم أني أخطأت في قراءتي.. وفي لحظة غفلة مع أني لا أذكر مكان الخطأ.. ولكن أعلم ذلك.

– نعم.. لقد أخطأت في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

– سبحان الله.. كتاب الله العزيز لا تستطيع أن تستبدل منه حرفا مكان حرف.. ومن كان يحفظ القرآن ربما ينتقل من آية إلى أخرى أو يُدخل آية في أخرى.. لتشابههما.. يشعر بأنه أخطأ.. وإذا لم يصححه أحد ربما يستمر.. ولكنه يعلم أنه أخطأ في مكان ما..

– وهذه هي المعجزة.. ذلك أن القرآن الكريم كلام الله.. فهو أكمل كلام؛ فإذا بدلت منه شيئاً أو غيّرت حرفاً نقص الكمال.. ويشعر بذلك من كان حافظاً أو مستمعاً جيداً لكتاب الله عز وجل.

– أظنني سهوت وخطر لي قول الله تعالى: من سورة النساء: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝١٧١﴾، إن أحدنا إذا لم يكن قوي التركيز في قراءته لكتاب الله عز وجل تختلط عليه الآيات.

- وهل يجب على من خَلْف الإمام أن يصحح قراءته ويفتح عليه إذا نسي؟!

- نعم.. إذا كان حافظاً للآية المقروءة، فيجب أن يصححها.. ويسكت إذا كان غير متيقن من حفظه.. وهذه المسألة من إعجاز القرآن، وقد تحدى بها الله عز وجل الإنس والجن مجتمعين: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء)، وهذا الإعجاز ينبه إليه الله عز وجل، عندما يفتتح بعض السور بحروف مقطعة «الم.. كهيعص.. ن».

فالسور التي تبدأ بهذه الحروف يأتي بعدها.. «ذلك الكتاب»، «كتاب أنزلناه»، «والقرآن المجيد»، «والكتاب المبين».. فالمعنى أن هذا الكتاب المكوَّن من هذه الحروف التي تتكلمون بها.. لا تستطيعون أن تأتوا بمثله.

- وكم عدد هذه الحروف؟

- أربعة عشر حرفاً.. مجموعة في عبارة «نصٌّ حكيمٌ قطعاً له سر» تفرقت في سبع وعشرين سورة إن لم تخني ذاكرتي.

وانظر إلى دقة نقل القرآن.. ذلك أن نقله بالسماع وليس بالكتابة.. في قوله تعالى: ﴿**يس**﴾ و﴿**الم**﴾.. تقرأ «يا.. سين» و«ألف.. لام.. ميم».. وقوله: ﴿**عَمَّ**﴾.. تقرأ «عَمَّ» مع أنها حرفان.. ولكن تقرأ كلمة واحدة.. لا أحرفاً مقطعة. ولذلك من أراد أن يحفظ القرآن حفظاً صحيحاً فلابد

أن يقرأه على حافظ، فالحفاظ لهم سلسلة تتصل إلى حفاظ الصحابة ثم إلى رسول الله ﷺ.

وهذا الإعجاز في القرآن.. أتى متحدياً أفصح البشر.. ولم ينته التحدي بعد.. وإنما هو باقٍ إلى يوم القيامة.. مهما تقدمت العلوم وتطورت التكنولوجيا.. وسهلت المعارف.. يبقَ القرآن معجزاً لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله.. ولا بعشر سور مثله.. ولا حتى بسورة واحدة.. ومن يدّعِ غير ذلك.. فليفعل.

الأحرف السبعة للقرآن

- قرأت حديثا سبَّب لي إشكالاً.

- أولا تثبَّت من صحة الحديث، فإذا ثبت نبحث عن معناه.

- هو ثابت لأني قرأته في «السلسلة الصحيحة» للشيخ الألباني رحمه الله.

قاطعته:

- تعلم أن الشيخ رحمه الله تراجع عن موقفه من بعض الأحاديث، فنقل بعضها من الصحيح إلى الضعيف وبالعكس... ولكن في قلة من الأحاديث.

- نعم أعلم ذلك، ولكن هذا الحديث ثابت.. وهو عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «**كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجرٌ وأمرٌ وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال.. فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه وقولوا: ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾**» الحاكم - ابن حبان.

- حديث جميل.

- وهناك حديث آخر في الباب ذاته.. وأيضا صحيح.. قال رسول الله ﷺ: «**أتاني جبريل وميكائيل، فجلس جبريل عن يميني وجلس ميكائيل عن يساري فقال جبريل: اقرأ على حرف، فقال ميكائيل: استزده، فقال:**

اقرأ القرآن على حرفين، قال: استزده.. حتى بلغ سبعة أحرف، قال: وكلٌّ كاف شاف» السلسلة الصحيحة.

- أيضاً حديث جميل، تعال نبحث عن حديث آخر في الأحرف التي نزل بها القرآن.

أحضر صاحبي حاسوبه المحمول.. فتح المكتبة الشاملة.. بحث عن «سبعة أحرف» في كتب الألباني - رحمه الله - وجدنا الحديثين وحديثاً آخر.. عن أبيّ بن كعب، **قال: «ما حك في نفسي شيء منذ أسلمت إلا أني قرأت آية وقرأها آخر غير قراءتي، فقلت: أقرأنيها رسول الله ﷺ، وقال صاحبي: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فأتينا رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله أقرأتني آية كذا؟ قال: نعم، وقال صاحبي: أقرأتنيها كذا؟ قال نعم.. أتاني جبريل.. ثم ذكر الحديث السابق.. وزاد في آخره: إن قلت: «غفوراً رحيماً»** أو قلت: «**سميعاً عليماً**» أو قلت: «**عليماً سميعاً**».. **الله كذلك ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب»** (حسنه الألباني).

- هذه الأحاديث تبيّن كيف كان التنوع في قراءة القرآن في البداية.. ثم لما انتشر المسلمون في كافة أرجاء المعمورة من بلاد الصين شرقاً إلى أقصى المغرب غرباً، واختلف الناس في القراءات وخشي عثمان رضي الله عنه وقوع فتنة بين الناس على القرآن، أمر بكتابة مصحف واحد.. هو (المصحف الإمام)، واستنسخ منه نُسخاً بعثها إلى الأمصار وأحرق غيره من المصاحف، فأصبح القرآن حرفاً واحداً.. لا تجد فيه أي اختلاف في ترتيب الكلمات أو الأحرف.. كما كان في المصاحف قبله.. فصار حرفاً واحداً بإجماع الصحابة.. وانتهت الاختلافات في الرسم القرآني.

- ماذا عن القراءات العشر؟!

- هذه ظهرت بعد ذلك.. وهي قراءات للحرف الواحد ذاته من المصحف الواحد والرسم الواحد.. ولكن بعضهم يقرأ بالمد وبعضهم بالقصر وبعضهم بالإمالة.. كأن تقول: ﴿**مالك يوم الدين**﴾ أو ﴿**مَلِك يوم الدين**﴾.. فهي قراءات لحرف واحد من القراءات بطرق مختلفة كقراءة حفص عن عاصم، ونافع والدوري وغيرهم من كبار القراء.. فلا يوجد اليوم إلا حرف واحد للقرآن؛ لانتهاء الحاجة إلى السبعة أحرف منذ عهد عثمان رضي الله عنه.

أحاديث النبي ﷺ

كنا نتدارس شرح النووي لصحيح مسلم.. وعلى وجه التحديد.. (باب من قتل نفسه).. سألني بعد انتهاء الدرس، ونحن في طريقنا للخروج من المسجد:

- كيف لا يكفر (المنتحر) والنبي ﷺ يقول: «**في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً**»؟!

- ألم ننقل قول العلماء بأن من مات على التوحيد لا يخلد في النار؟

- نعم أعلم ذلك، ولكن لفظ الحديث.. «**خالداً مخلداً أبداً**»!! لا يفهم منه إلا الخلود الأبدي في النار.. والخلود الأبدي لا يكون إلا للكافر.

- إن القاعدة الأولى في فهم أحاديث النبي ﷺ هي الجمع بين الأحاديث الصحيحة وعدم ضرب بعضها ببعض أو إنكار بعضها لأجل بعض.. ولدينا أحاديث صحيحة تبين أن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.. ومن مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة.. «**أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق**».. مسلم.. وكذلك حديث الموجبتين: «**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار**».. مسلم.

وهناك أحاديث تبيِّن إنه لا يدخل الجنة من أتى بعض الذنوب، وكذلك تبرُؤ الرسول ﷺ ممن أتى بعض الذنوب.. مثل.. «**من حمل علينا السلاح**

فليس منا» (البخاري).. «**من غشنا فليس منا**» (مسلم).. «**أنا بريء ممن حلق وسلق وخرق**» (مسلم).. «**لا يدخل الجنة قتات**» (متفق عليه)..

قاطعني:

- هلا شرحت الأمر حتى لا تكثر علي الأحاديث:

- الأمر هو أنك لا تستطيع أن تصل إلى استنتاجات لاسيما في أمور العقيدة لمجرد أنك قرأت حديثاً صحيحاً.. ولا حتى في الأحكام الفقهية.. فلا تحرِّم.. ولا تحلّل.. ولا تستحسن ولا تحكم بجنة أو نار.. استناداً إلى فهمك لألفاظ الحديث.. بل اسأل العلماء.. واقرأ شروحهم للأحاديث وكيف جمعوا بين الأحاديث جميعها.. وإلا فإنك ستقع في قضايا خطيرة تكفّر بها الناس وتحكم عليهم بالخلود في النار أو تحريم الدخول إلى الجنة.. وهذا سبب ضلال كثير من الفرق.

سكت متفكراً كأنما يسمع شيئاً جديداً.. تابعت:

- وهذه مشكلة كثير من الشباب الذين يلتزمون بالدين بعيداً عن ملازمة عالم يشرح لهم قضايا الشرع من عقيدة وفقه وتفسير وغير ذلك.

- وهل يجب ملازمة شيخ لفهم الدين؟!

- نعم.. وإذا لم يتوافر هذا الأمر فلا تلزم نفسك وغيرك بأمور تعبدية أو في العقيدة حتى تسأل من لديه علم شرعي، وإلا فإني أخشى عليك أن تقع في الضلال من حيث تريد الهداية.

في المعراج: هل رأى النبي ﷺ ربه؟

- هذه قضية لا يترتب عليها تكليف واختلف فيها السلف منذ العهد الأول، فابن عباس قال: إن الرسول ﷺ رأى ربه ليلة المعراج، وعائشة أم المؤمنين قالت: لم ير الرسول ﷺ ربه، ولكل فريق دليله.

- وأنت ماذا تقول؟

- وهل لي أن أقول بعد قول العلماء؟! لن أخبرك برأيي، ولكن دعني أذكر لك أدلة هؤلاء وهؤلاء، ثم انظر أيهما أقرب.

عن عكرمة: سئل ابن عباس - رضي الله عنهما - هل رأى محمد ﷺ ربه؟ (يعني ليلة الإسراء) قال: نعم. والصحابي إذا أخبر عن قضية غيبية فإن قوله يأخذ حكم الرفع إلى رسول الله ﷺ، ثم إن قول ابن عباس فيه إثبات، أما الآخرون فقد نفوا وفي القواعد: الإثبات يقدم على النفي، يقول النووي في شرحه لصحيح مسلم: «وذهب الجمهور من المفسرين إلى أن المراد أنه رأى ربه سبحانه وتعالى، ثم اختلف هؤلاء فذهب جماعة إلى أنه ﷺ رأى ربه بفؤاده دون عينيه، وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينيه، قال الإمام أبو الحسن الواحدي، قال المفسرون: هذا إخبار عن رؤية النبي ﷺ ربه عز وجل ليلة المعراج» وفي شرح ذلك **«أن الله جعل بصره في فؤاده أو خلق لفؤاده بصراً حتى رأى ربه رؤية صحيحة كما يرى بالعين»**.

أما قول عائشة رضي الله عنها والفريق الذي يقول: إن الرسول ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج؛ فالحديث في مسلم عن مسروق يقول: كنت متكئاً

عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة (مسروق) ثلاثٌ من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على اللّه الفِرية، قلت ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على اللّه الفرية، قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل اللّه عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ (التكوير)، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ (النجم)، فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول اللّه ﷺ، فقال: «**إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض**». مسلم.

وكذلك حديث أبي ذر: «قال: سألت رسول اللّه ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنَّى أراه؟!» صحيح، قال الإمام أبو عبداللّه المازري - رحمه اللّه -: الضمير في (أراه) عائد على اللّه سبحانه وتعالى، ومعناه: النور (الذي هو حجابه سبحانه) منعني من رؤيته.

- أظنك أمسكت العصا من النصف، أعطني أداة أخرى أستطيع بها أن أرجح بين الرأيين.

- هناك قاعدة أننا نُرجع الأمور إلى أصولها؛ فالأصل الذي يتفق عليه أهل السنة والجماعة كلهم، أن اللّه لا يُرى في الدنيا رأي العين، ومن أراد أن يحيد عن هذا الأصل عليه بالدليل.

- كأنك ترجح أن الرسول ﷺ لم يرَ ربه؟!

- لم أقل ذلك لأن العلماء ردّوا على هذا الأصل بأن الرؤية لم تكن على الأرض ولم يكن الرسول ﷺ بهيئته البشرية كما هو على الأرض،

بل بهيئة عرج بها إلى السموات العلا حتى وصل إلى سدرة المنتهى، فهذا الأصل لا ينطبق هنا.

- إذاً ماذا تقول؟

- أقول: إن الاعتقاد بأحد القولين لا ينفي القول الآخر، ولا يترتب عليه عقيدة تزيد أو تُنقص العبد يوم القيامة، إنها قضية، إن حصلت للنبي ﷺ فقد رأى من آيات ربه الكبرى في تلك الليلة، ولأَثبَتها صراحة عندما سأله أبو ذر كما في صحيح مسلم، وإن لم تحصل فإن ذلك لا يقلل من عظم الآيات الأخرى التي رآها الرسول ﷺ ومكانته العظمى عند الله تعالى.

احتار صاحبي ولم يعرف أي الرأيين أؤيد!

السُّنَّة كالقرآن.. حتى في العقيدة

منذ رمضان وهو ملتزم بالصلاة ـ في مسجدنا .. سألني مرتين أو ثلاثاً عن بعض الأحاديث.. عرفت بعد ذلك أنه سكن مؤخراً ـ في حيّنا .. وأنه يعمل ـ في مجال الاستيراد والتصدير.

ذهبت إلى المسجد قبل أذان العشاء بنصف ساعة.. كان منهمكاً ـ في قراءة القرآن.. خفض صوته عندما رآني.. أديت تحية المسجد .. وجلست ـ في مكاني المعتاد .. أتاني.. سلّم.. جلس بجانبي.

- لقد قرأت كتابك ـ في العقيدة.. الجزء السادس.. هل لي بباقي الأجزاء؟

- إن شاء الله آتيك بالجزأين السابع والثامن.. أما الأوائل فليس لدي سوى نسخة واحدة أحتفظ بها.

- جزاك الله خيراً.. ولكن لدي تعليق أو ربما سؤال ـ في العقيدة: ألا تظن أننا ينبغي أن نلتزم بالأدلة القطعية فقط ـ في العقيدة.. أعني القطعية ـ في ثبوتها؟

- بالطبع.. كل الأدلة يجب أن تكون من القرآن أو السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله.

- ولكن هناك دائماً من يطعن ـ في صحة الأحاديث.. وربما يثبت الحديث عند شيخ.. ويضعف عند شيخ آخر.. وربما يرى العالِمُ أن الحديث صحيح اليوم ثم يرجع عن هذا الرأي ـ في المستقبل لما يتبين له.. وهكذا نرى أن ثبوت الحديث ليس بدائم.

- هذا كلام عام.. وغير دقيق؛ فالأحاديث التي أجمعت الأمة على صحتها لا تراجع عن صحتها.. والأحاديث التي يرى بعض العلماء صحتها وبعضهم ضعفها ليست في العقيدة.. ثم استقر الأمر على قواعد يُعرف من خلالها صحة الحديث من ضعفه.. وهذا ما يميز أهل السنة عن غيرهم.. دقتهم في «الجرح والتعديل».. فلا شك أن الأحاديث التي أجمعت الأمة على صحتها تكون أدلة حتى في باب أسماء الله الحسنى وصفاته العلا.. بل كثير من صفات الله - عز وجل - لم تثبت إلا بالأحاديث الصحيحة.. استغرَبَ كلامي:

- وهل يمكن وصف الله بصفات ثبتت بالأحاديث فقط؟

- طبعاً.. بل يجب إثبات صفات الله التي جاءت بالأحاديث الصحيحة.. مثلاً: «صفة النزول إلى السماء الدنيا كل ليلة».. وصفة: «اليدين وأن كلتاهما يمين».. وصفة: «الغضب».. وصفة: «الضحك».. وصفة: «القَدَم».. وصفة: «الأصابع».. وصفة: «حجابه النور».. وصفة: «الطيّب».. وصفة: «الجمال».. وصفة: «النظافة».. وصفة: «الجود».. وصفة: «أذى ابن آدم له سبحانه».. وصفة: «التعجب».. وغيرها.. لم تثبت إلا بالأحاديث الصحيحة.. ولا ينبغي لمسلم إلا أن يثبت هذه الصفات ويؤمن بها لله - عز وجل - سكت صاحبي فترة.. ثم تابع:

- أنا لم تمض علي سوى ثلاثة أشهر في الكويت وأظنني أتعلم أموراً كثيرة لم تخطر على بالي طيلة الأربعين سنة التي عشتها مع كثرة اطلاعي على الكتب الإسلامية.

- بل أحدنا ينتهي عمره وهو يتعلم شيئاً جديداً لم يكن يعرفه من قبل.

إخوان النبي ﷺ وأصحابه

– وهل للنبي ﷺ إخوة من أب وأم؟

– كلا... ولكن قرابته من الأعمام والأخوال.. وأبنائهم.

– والحديث الذي يذكر فيه النبي ﷺ إخوانه؟

– تعني.. «**وددت أني لقيت إخواني، فقال أصحابه: أَوَليس نحن إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني..**» (الصحيحة).

– نعم... هذا الحديث يبيّن تفضيل من أتى بعد النبي ﷺ وآمن به على من كان معه.

– ومن قال هذا المعنى؟

– هكذا فهمت أنا من الحديث.

– لم يقل أحد بأفضلية من أتى بعد النبي ﷺ على من كان معه.. بل الأصل أن خير الأجيال من كان مع الرسول ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم..**» (الصحيحة).. ولكن الحديث يبيّن فضل الإيمان بالرسول ﷺ مع عدم الرؤية؛ وذلك أن الصحبة لا تحصل إلا باللقاء والإيمان أما الأخوة فتحصل بمجرد الإيمان.. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الحجرات)، فالصحابة حققوا الأمرين اللُّقيا مع الإيمان.. أما من أتى بعد النبي ﷺ فلا حظّ له في الصحبة.. ولكن يتعلق بالإيمان حتى ينال الأخوة مع النبي

ﷺ، وهناك حديث آخر: «**طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى سبعاً لمن لم يرني وآمن بي**» (حسنه الألباني).. فهذا دعاء من النبي ﷺ لمن آمن به ﷺ دون رؤية.

كنت وصاحبي آيبيَن من درس بعد صلاة المغرب انتهى قبل العشاء، فخرجنا لندرك العشاء في مسجد آخر.. للقاء بعض الإخوة.. تابعت حديثي:

- هذه الأحاديث وغيرها تدفعنا للتمسك بحب النبي ﷺ واتباع سنته حتى ننال بركته ودعاءه.. وإلا فلا نشك أن الصحابة خير من جميع من يأتي بعدهم.

- سمعت أحدهم يقول: إن السنة يقولون بعصمة الصحابة.

قاطعته:

- هذا جاهل.. أو كذّاب.. وأظنه يريد أن يقول: إن أهل السنة يعظمون الصحابة كما تعظم بعض الفرق آل البيت.. فيدفعونهم إلى مقام النبوة بل الألوهية أحيانا بزعمهم أنهم يملكون الجنة والنار يوم القيامة.. ولا شك أن هذا افتراء.. إن أهل السنة يقولون بعدالة الصحابة.. أي إنهم لا يكذبون على رسول الله ﷺ ولا يتقولون عليه.. بل هم أصدق الناس.. وأكثرهم إخلاصاً.. وأعظمهم حباً لله ولرسوله ﷺ .. وأشدهم اتباعا لأقوال النبي ﷺ حتى إن أحدهم يعتزل مجلس النبي ﷺ خشية أن يكون فيمن عناه الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا

﴿تَشۡعُرُونَ ٢﴾ (الحجرات) كما حصل مع ثابت ابن قيس بن شماس وذلك لأنه كان جهوري الصوت.. فبيّن له الرسول ﷺ أنه ليس المقصود وبشره بحسن المآل.. فالصحابة تميزوا عمن جاء بعدهم بشيء وَقَر في قلوبهم.. حبٌّ لله ولرسوله.. إيمان وصدق وإخلاص واتباع لأوامر الله ولرسوله ﷺ.. ولكنهم لم يكونوا معصومين.. ولا معصوم بعد الرسول ﷺ.. فوقع من بعضهم أخطاء ووقع بينهم خلاف.. ووقع بينهم قتال.. ويقتتل المؤمنون أحياناً، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾، ولكنهم دون شك أول الناس دخولاً الجنة.. وأقربهم إلى رسول الله ﷺ، وكل ذمٍّ أتى لمن كان مع النبي ﷺ فإن المقصود به المنافقون أو أهل الردة.. أما الصحابي الذي آمن بالله ورسوله ﷺ ومات على ذلك فلا شك أنه على خير.

ويمضي العمر سريعًا

أصغر البنات على وشك أن تصبح أمًّا - إن شاء الله - والأمراض بدأت تستوطن البدن.. (الكوليسترول).. الأملاح.. المفاصل.. (الديسك).. والقراءة أصبحت مستحيلة دون نظارات.

يتذكر أحدنا، وإن لم يكن يتذكر يرجع إلى (ألبومات) الصور وأشرطة (الفيديو) ليرى كيف كان في شبابه.. ثم أول أيام زواجه.. ثم مع الطفل الأول.. ثم تخرجه وشهاداته.. شريط الحياة يمضي سريعاً.. ويبدأ العدُّ التنازلي للانتقال إلى الحياة الأخرى..

كنت وصاحبي في جولة سريعة بالمركبة بعد صلاة العشاء:

- وما الذي خطر على بالك لتتذكر كل هذا؟!

- خطبة الجمعة بالأمس.. إخوان كانوا يصلون معنا.. تُوفُّوا.. رمضان سيأتينا بعد أقل من شهرين.. وكأننا للتو انتهينا من رمضان الماضي.. الصيف اشتدت حرارته.. وكأنه لم يمر علينا شتاء برد فيه الجو.

- ألم يخبر النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان؛ فتكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة وتكون الساعة كالضرمة بالنار.. وفي رواية: كاحتراق سعفة**».. الترمذي (صححه الألباني)؟!

- بلى.. والخاسر من يسوّف.. على المسلم أن يتعامل مع الزمن لحظة بلحظة، الذي يقول: سأفعل.. السنة القادمة.. أو الشهر القادم.. أو الأسبوع القادم.. وهكذا.. فإنه يمر عليه العمر ولم يعمل.. المسلم

يقول: هذه اللحظة أذكر الله.. وهذه الدقيقة أذهب إلى المسجد.. لا يفوّت صلاة.. ولا يضيّع صياماً.. ولا يتهاون في عمل الخير.. ولا يتقاعس عن المبادرة في الصالحات.. وذلك أن العمر ما هو إلا مجموع الدقائق والثواني.. كلما مضى منها شيء نقص بقَدَره من عمره.. وهي تمضي سريعاً.. حركة الأرض سريعة.. والشمس سريعة.. وتعاقب الأيام والليالي سريع.. يبدأ النهار.. ثم يأتي الليل.. ويطلع نهار جديد بعده.. لا تتوقف هذه الحركة.. وينقص عمر الإنسان معها سريعاً.. «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**» مسلم والترمذي وابن ماجة.

- يحتاج أحدنا أن يتذكر هذه الأمور ولاسيما أن زماننا مليء بالمشاغل.. الحقيقية والمزيفة.. العمل.. الأهل.. الإلتزامات الإجتماعية.. النفس.. أمور كثيرة إذا التفت إليها الإنسان شغلته حتى عن الصلاة.. هل تصدق أني قبل يومين نسيت صلاة الظهر، ولم أتذكرها إلا وأنا أتوضأ لصلاة العصر.. كنت منذ الصباح في لجان واجتماعات وامتحانات للطلبة.. ثم استلقيت نصف ساعة قبل العصر.. ولم أتذكر أنني لم أصل الظهر.. أستغفر الله.

- أحدنا إذا لم يلزم نفسه بأمور.. مثل الصلاة في الوقت بالمسجد.. الزكاة في الموعد.. صلة الرحم وخاصة الوالدين في الموعد.. ويلتزم بذلك دون تغيير مهما كانت الظروف.. فإن أمواج الدنيا تجرفه بعيداً ولا ينتبه والعياذ بالله إلا في سكرات الموت فيقول: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (المؤمنون).

المـوت

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ (الملك).

– وكيف يكون الموت مخلوقاً؟

– الله خلقه.. ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ (الزمر).. فهو الذي خلق كل محسوس، وكذلك كل غير محسوس.. الطمأنينة والسعادة والحزن والخوف، كما الماديات، كذلك المعنويات خلقها الله.. عز وجل.

– وما الموت؟

– خروج الروح من الجسد.. وتوقف الأعضاء عن العمل.

– وما معنى حديث جابر: «النوم أخو الموت» وهل هو ثابت؟

– نعم الحديث أورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» وتمامه: «**النوم أخو الموت، ولا يموت أهل الجنة**» فهم لا ينامون.. والنوم فيه انفصال للروح عن الجسد.. بشكل ما.. ثم ترجع الروح، كما في قول الله تعالى.. ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (الزمر).

– هلا تحدثنا عن تفسير هذه الآيات.

كنت وصاحبي في نقاش (علمي)، ونحن في طريقنا لتعزية أحدهم بوفاة شقيقه.

– هنا يفرق الله عز وجل بين الوفاة والموت، كما في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الأنعام).

فالوفاة انتقال من حال إلى حال، والموت خروج للروح عن الجسد، فالنوم وفاة صغرى، والموت وفاة حقيقية أو كبرى.. وفي تفسير (الكشاف) أن النفس التي تُتَوفى في النوم هي نفس التمييز، أما نفس الحياة فإنها تبقى؛ ولذلك يبقى النائم يتنفس وينبض قلبه، وإن كان لا يميّز شيئاً، وهذا تفصيل جميل للتفريق بين الموتة الصغرى (النوم) والموتة الكبرى (خروج الروح).

– وماذا عن (وفاة) عيسى عليه السلام؟

– تعني قولَ الله تعالى.. ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (آل عمران)؟

– نعم هذه الآية.

– تعلم أن عقيدتنا أن عيسى ﷺ لم يصلب ولم يقتل، يقيناً دون شك: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧)، فمعنى (متوفيك).. (مُنيمك).. كما في قوله تعالى.. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ (الأنعام: ٦٠). أو (ناقلك من حال إلى حال).

- وماذا عن الروح؟!

- ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء)، هذه المخلوقة لا ينبغي أن نتكلم عنها إلا بدليل من كتاب أو سنة صحيحة؛ ولذلك لا اجتهاد في أمر الروح، ولا نعلم عنها إلا ما علّمنا الله في كتابه أو بواسطة نبيه ﷺ، فالروح تخرج من الجسد وتنفصل تماماً عندما يحين الأجل ويأتي قضاء الله بموت الإنسان، وتتكفل ملائكة الموت بأمر سيدهم (ملك الموت)، بانتزاع الروح، وهناك أحوال لخروج أرواح المؤمنين وأرواح الكافرين، وبين ذلك كثير، ثم تصعد إلى السموات.. تفتح لها أو تغلق دونها، فتكون في عليين.. أو أسفل سافلين، ثم ترجع بصورة ما إلى الجسد .. ليحاسب في القبر، ثم تكون في أحوال مختلفة حسب حال صاحبها، أما ما نعلم فإن أرواح المؤمنين «**في أجواف طير خضر في الجنة**» ابن ماجة (صححه الألباني)، وربما تلتقي أرواح الأموات بأرواح النيام، ويوم القيامة، تُجمع جميع الأرواح في صُوَر فينفخ فيه فترجع كل روح إلى جسدها في القبر وتجتمع مرة أخرى ليقوم الناس للحساب، وفي الأمر تفصيل ليس هذا مكانه.

ولكن تبقى حقيقة لابد ألا نغفل عنها، وهي أن الموت حق على الجميع، ويأتي دون سابق إنذار، بأَجَل يعلمه الله؛ ولذلك ينبغي أن يسأل المرء ربه دائما .. (حسن الخاتمة).. و«ميتة سوية»؛ فإنه «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**» رواه مسلم.

زيــارة القبــور

هاتفني صاحبي قبل صلاة العصر واقترح عليَّ أن نؤدي الصلاة في المسجد المرفق بالمقبرة.. قبلت اقتراحه وشكرته.

- هل تعلم أني لم أزر المقبرة منذ أكثر من شهر.

- وأنا كذلك.

- كنت اقرأ مقالاً في الجريدة عن آداب الزيارة فتذكرت حديث النبي ﷺ: «**كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة**» رواه مسلم. ومن غريب ما قرأت أن المرء يقرأ بعد الفاتحة في التكبيرة الأولى من صلاة الجنازة سورة أو آيات.

- نعم أظن أن الحديث ثابت ويرويه ابن عباس في قراءة شيء بعد الفاتحة.. وإذا دخل المرء وقد فاته شيء من التكبيرات، مثلاً دخل ولايعلم هل كبر الإمام الثانية، أو الثالثة، يكبر هو على أنها التكبيرة الأولى له، وإذا سَلّم الإمام يقضي ما فاته وإذا لم يدرك صلاة الجنازة مع الإمام صلاها على الـمُتوفى بعد أن يدفن، وحتى إذا صلى مع الإمام وأراد أن يصلي مع الجماعة الثانية فإنه يثاب على ذلك.

- هذه معلومة جديدة.

أذّن العصر ونحن في بداية الطريق.. طمأنني صاحبي:

- لا تقلق سندرك الصلاة قبل بدايتها.

- وإذا كان أحدهم في سفر ورجع بعد أسبوع أو أسبوعين من دفن المتوفى يصلي عليه؟

- نعم.. وحدَّدَ العلماء مدة شهر للصلاة على المتوفى.

- وهل الدعاء للمتوفى على القبر يكون برفع اليدين؟

- ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ زار المقبرة ورفع يديه ودعا للأموات، فهو أبلغ في إجابة الدعاء، ويقف على القبر يدعو للمتوفى مستقبلاً القبلة، وإذا دعا واحد وأمّن الآخرون فلا بأس، ولكن القصد أن يُخلِص المرء في دعائه للمتوفى ويستحضر فكرة أنه سيكون هو المتوفى ويحتاج من يدعو له، ولم يثبت شيء في قراءة الفاتحة أو «يس» أو غيرها من سور القرآن عند القبر.

والمتوفى يستفيد من دعاء الأحياء له وربما يأنس بزيارتهم القبر والدعاء عنده، ولم يثبت شيء في أنه يعلم من يزوره.

- أرى أنك اطلعت على تفاصيل الزيارة.

- نعم.. قرأت شروح الأحاديث، وفي دعاء دخول المقبرة: «**السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية**».. قوله: «إن شاء الله» إما لبركة هذه الكلمة.. أو «إن شاء الله» ندفن هنا في هذا المكان معكم فإننا لاندري.. والعافية للأحياء، هي الهداية والصحة، وللأموات: المغفرة والأمان من الأهوال، ويصلي على الجنازة الرجال والنساء وللجميع ثواب القيراط في الصلاة والقيراطين في الدفن، ولكن بعض العلماء يرى تحريم زيارة المقبرة للنساء خشية الفتنة، ولحديث النبي ﷺ: «**لعن الله زوارات القبور**» صحيح الجامع الصغير، وبعضهم أجازها إذا أمنت الفتنة منها أو عليها.. من النياحة والصياح وغيره.

- وإذا صلينا على أكثر من جنازة؟

- كل جنازة قيراطان إن شاء الله، وفضلُ الله عظيمٌ.

- وإذا دفن أحدهم في مكة، ألذلك أفضلية؟!

- لا أفضلية للدفن في مكة.. والأولى ألا تنقل الجنازة من بلد إلى آخر إلا لحاجة، ولكن الأفضلية لكثرة المصلين على الجنازة، لحديث النبي ﷺ: «**ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله فيه**» صحيح.. ومن السنة أن يقف المصلون في ثلاثة صفوف وإن قل عددهم كما في حديث أبي أمامة: «**أن رسول الله ﷺ صلَّى على جنازة ومعه سبعة نفر فجعل ثلاثة صفاً واثنين صفاً واثنين صفاً**» (أحكام الجنائز - الألباني). وينبغي الثناء خيراً على المتوفى للحديث.. «**ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنيين أنهم لا يعلمون منه إلا خيراً إلا قال الله تعالى وتبارك: قد قبلت قولكم أو قال: بشهادتكم وغفرت له ما لا تعلمون**» (أحكام الجنائز - الألباني).

نسأل الله حسن الخاتمة.

نعيم القبر أقرب من عذابه

لقد تعوذ الرسول ﷺ من عذاب القبر، وجعل ذلك سنة في كل صلاة؛ ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول اللّه ﷺ يدعو: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**». متفق عليه، فلئن كان الرسول ﷺ يخاف ويستعيذ من عذاب القبر، فنحن من باب أولى.

كان صاحبي يجادلني أن عذاب القبر يصيب كل إنسان لا محالة، وأنه من الأمور التي تخيفه كثيراً:

- لقد تعوذ الرسول ﷺ من هذه الأربع وجعلها ذِكراً بعد التشهد الأخير من كل صلاة؛ تعليماً لأمته وبياناً لشدتها، وإلا فإنه ﷺ حُفظ من كل الفتن وليس له إلا أعلى درجات النعيم في القبر والحشر وفي الجنة، وعموماً المؤمن يؤمن بعذاب القبر ويخاف أن يصيبه هذا العذاب، ولكن المتتبع للأحاديث الصحيحة يرى أن نعيم القبر أقرب من عذابه للمؤمن.

استغرب صاحبي مقولتي:

- هات مزيد تفصيل، فهذه العبارة «قوية».

- أولاً أحاديث خروج الروح كلها تبيّن حسن حال المؤمن وبشارته لحظة الاحتضار، نحن هنا لا نتكلم عن سكرات الموت وضمة القبر، فهذه واقعة للجميع، ولكن نتكلم عن العذاب بعد ذلك، فإن المؤمن في مأمن من

عذاب القبر، ففي الحديث عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الميت إذا وضع في قبره فإنه يسمع خفق نعالهم حين يولّون مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه وكان الصيام عن يمينه وكانت الزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيُؤتى من قِبَل رأسه فتقول الصلاة: ما قِبَلي مدخل، ثم يُؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قِبَلي مدخل، ثم يُؤتى عن يساره فتقول الزكاة ما قِبَلي مدخل، ثم يُؤتى من قِبَل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قِبَلي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس وقد دنت للغروب فيقال له: أرأيتك هذا الذي كان قِبَلَكم ما تقول فيه وماذا تشهد عليه؟ فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقولون: إنك ستفعل، أخبرنا عما نسألك؟ فيقول: محمد ﷺ أشهد أنه رسول اللّه ﷺ وأنه جاء بالحق من عند اللّه، فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء اللّه، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقال: هذا مقعدك منها وما أعده اللّه لك؛ فيزداد غبطة وسروراً، ثم يفسح له في قبره سبعين ذراعاً ويُنوّر له فيه**». حسنه الألباني.

–هذا حديث جميل مبشّر.

– وهناك الكثير من الأحاديث التي تبشر المؤمن الذي أدى الفرائض بنعيم القبر.

أما الكافر فله العذاب في القبر، كما في صحيح الجامع الصغير «**وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا**

أدري، كنت أقول ما يقوله الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطراق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين، ويضيّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه».

- وماذا عن حديث «**يعذبان، وما يعذبان في كبير**»، وحديث العذاب نتيجة الدَّين؟

- هذه ذنوب ينال العبد العذاب عليها في القبر، وهي «عدم التنزه من البول»، والنميمة، والغلول، والدَّين، فإذا أُدي الدَّين عنه توقف العذاب، وإذا نال ما يستحق من العذاب على هذه الذنوب توقف العذاب، أما الأصل فإن المؤمن المؤدي للواجبات والأركان المتجنب للذنوب والمستغفر مما وقع فيها يكون حاله في القبر خيراً بإذن الله، ويبقى المؤمن بحاجة إلى أن يستعيذ بالله من عذاب القبر؛ لأنه لا يدري ما الذي سيصيبه، ولكنه يرجو أن ينجو برحمة الله وبما أدى من الواجبات، وبشارة أخيرة لمن مات بمرض باطني: «**من قتله بطنه لم يعذب في قبره**» صحيح الترغيب والترهيب.

الفائدة.. من تذكر الموت

بعث لي أخي كلمات (ستيف جوبز - شركة أبل) قبل وفاته... والتي يمكن ترجمتها «أن أتذكر أنني سأموت قريباً كان أهم أداة على الإطلاق حصلت عليها لمساعدتي على اتخاذ قراراتي الكبرى لأنه تقريباً كل شيء: كل التوقعات، كل الزُهوّ والفخر، كل الخوف من الإحراج أو الفشل.. كل هذه الأشياء تبخرت أمام حقيقة الموت... ولم يبقَ إلا ما هو مهم بالحقيقة.. أن تتذكر أنك ستموت أفضل طريقة عرفتها أنا لتجنب السقوط في الخوف من أن تفقد شيئاً».

وصلتني هذه الكلمات عبر البريد الإلكتروني.. فما كان مني إلا أن أجبته:

- كلمات فيها الكثير من الحكمة.. وليته كان يعلم أن الموت ليس نهاية الإنسان.. لكان عمل لأجل تلك الحياة أكثر مما عمل في حياته هذه.

هاتفني صاحبي.. لنكمل الحوار:

- هذا رجل نصراني.. أو ربما لم يؤمن بشيء.. وكما وصفه كثيرون «لقد أحدث تغييراً في العالم أجمع».. فما بالك بمن يؤمن يقيناً أنه سيموت.. ثم يُبعث.. ثم يُحاسب.. ثم يُجازى؟! لا شك أن هذه العقيدة تدفع العاقل أن يكون إنساناً صالحاً في حياته هذه.. أن يكون «**مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر**» بل يكون مصلحاً.. بعد كونه صالحاً.. يميط الأذى عن الطريق.. ويصلح بين الناس.. ويدعو إلى توحيد الله عز وجل.. ولذلك أرشدنا الرسول ﷺ إلى زيارة القبور.. لأننا في زحمة الحياة ننسى.. الموت.. «**إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزورها فإنها تذكركم الموت**» مسلم.

سكتّ ليعلّق صاحبي..

- بالنسبة لي الموت يجعلني أزهد في الدنيا.. لقد جَمعْنا من الدنيا ما لا نحتاج له.. بنينا ما لا نسكن.. واشترينا ما لا نركب.. واقتنينا ما لا نستعمل.. وذلك لكثرة ما منَّ الله به علينا من المال.. حتى أصبح الأمر.. أننا كلما اشتهينا شيئاً عملناه.. ربما.. قررنا ألا نقضي ليلة في بيوتنا.. فنذهب إلى أرقى الفنادق عطلة نهاية الأسبوع في إحدى الدول القريبة أو البعيدة.. هكذا لمجرد التغيير.. فعندما أتذكر الموت تصبح كل هذه الأشياء لا قيمة لها.. حتى الثياب الغالية والمركبات الفارهة.. لماذا كل هذا.. ونحن سريعاً سنتركه.. ونغادر إلى.. تحت التراب.. عالَمٌ لا قيمة فيه لشيء إلا «العمل الصالح»؟!

- ولكن لا بأس أن يتمتع المرء بخير الدنيا الحلال.

- أعلمُ ذلك.. ولكن الأمر أصبح كله تمتعاً.. لا مجرد أوقات محدودة وساعات معدودة.. أظن أننا بحاجة إلى تذكر الموت على الدوام حتى لا نفوّت صلاة جماعة لأجل اجتماع.. ولا نفوّت قراءة حزب كل ليلة لأجل إرهاق العمل.. ولا نفوّت الإحسان إلى الآخرين بحجة انشغالنا وعدم درايتنا بهم.

- لا أتفق معك.. لا نريد أن ننغِّصَ حياتنا.. تعرف حديث النبي ﷺ عندما خاطبه الصحابة.. يشكون تغير أحوالهم الإيمانية عندما يكونون معه وبعد أن ينشغلوا بالأهل والأولاد.. ماذا قال لهم رسول الله ﷺ؟.. **«والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة. ثلاث مرات»** صحيح مسلم.

أول وآخر من يدخل الجنة

بدأنا بقراءة المجلد الثاني من شرح النووي لصحيح مسلم.. يشمل هذا المجلد الجزأين الثالث والرابع ويبدأ بما انتهى به المجلد الأول: معراج النبي ﷺ.

بعد الدرس الذي لا يزيد عن عشر دقائق قال صاحبي (بومساعد).. وقد دعوته إلى تناول شاي العصر في مكتبي بالمنزل:

- إذا كان هذا حال آخر من يخرج من النار.. وآخر من يدخل الجنة.. فكيف أول من يدخل الجنة؟

وكان درس العصر قد تناول الحديث الطويل عن ذلك الرجل الذي يكون وجهه مُقّبلاً على النار وهو آخر أهل الجنة دخولاً.. عندما يدخل الجنة.. يقول له الله تعالى: تمنّه.. فيتمنى، ويتمنى حتى إن الله ليذكّره كذا وكذا.. حتى إذا انقطعت به الأماني قال الله تعالى: ذلك لك ومثله معه.. وفي رواية قال أبوسعيد.. «**أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله: ذلك لك وعشرة أمثاله**» (متفق عليه).

- يا أبا مساعد.. حال هذا الرجل لا يُسِرُّ على الإطلاق؛ إنه لم يعمل خيراً قط، إلا أنه مات على التوحيد ولم يشرك بالله شيئا، فأخذ من عذاب النار الشيء الكثير نسأل الله السلامة منها، فلا ينبغي لعبد أن يدعو الله أن يكون مثل هذا.. إنما ينبغي دعاء الله أن يدخل أحدنا الجنة دون عذاب، فإن العذاب شديد، وأليم، ولا ينبغي لأحد أن يقول: لا بأس

بالعذاب إذا كان المآل إلى الجنة.. (إنها لظى).. و(سعير).. و(جهنم).. عافانا اللّه منها.

- وكيف لنا أن نكون مع أول من يدخلها؟!

- بالدعاء، والعمل بإخلاص، ورحمة اللّه، فإن أعداد من يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب كثيرة جدا.

- أليسوا السبعين ألفا؟

- كلا.. بل أضعاف لا يعلمها إلا اللّه.. اسمع حديث النبي ﷺ، عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «**وعدني ربي عز وجل أن يُدخِل الجنة من أمتي سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل**».. فإذا استطعنا أن نعرف العدد الأولي.. وهو (٧٠,٠٠٠ + ٤,٩٠٠,٠٠٠) فكيف لنا أن نعرف الذين سيكونون في الحثيات الثلاث من حثيات رب العزة سبحانه وتعالى؟!!

استغرب صاحبي الحديث:

- هل الحديث ثابت..

- نعم.. رواه أحمد والترمذي وابن ماجة وصححه الألباني.. هؤلاء فيهم الأوائل الذين وجوههم تتلألأ كالبدر، ولكنهم جميعا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، هؤلاء الذين نسأل اللّه أن يجعلنا منهم، والعدد لا حصر له..

- ومعنى حثيات ربي؟!

- حثا التراب.. يحثوه حثواً.. أخذ ملء كفيه فرماه.. فإننا نؤمن بأن الله عز وجل له يدان.. وكلتاهما يمين.. وأنه سبحانه سيأخذ من أهل الإيمان ثلاث حثيات يدخلهم الجنة بلا حساب ولا عذاب دون أن نقول كيف، ودون أن نشبه الله عز وجل بشيء من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ (الشورى) ونسأله عز وجل أن يجعلنا من الفئة التي تدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

علامات الساعة

الأحداث الأخيرة في العالم العربي التي أطاحت برؤساء بعض الدول.. والفوضى التي انتشرت في كثير من بلادنا.. ثم الزلزال الكبير الذي ضرب اليابان - كل ذلك جعل كثيراً من الناس يتساءلون عن «الساعة».. وكثر السؤال: «هل هذه من علامات قيام الساعة وقربها؟»

وكان هذا ابتداء حواري مع أخي جابر الذي أقعده مرض مفاجئ فأصبح أسير الكرسي المتحرك:

- هذه كلها علامات صغرى.. ولا تعني أن الساعة ستقوم غداً أو بعد غد أو حتى بعد سنة أو حتى في عمرنا.. بل أجزم بأنها لن تقوم علينا.

استغرب تأكيدي:

- ولكن سمعت أحدهم يقول إن هذا «زمن خروج المسيح الدجال».

- كلا.. ليس زمن خروج الدجال ولن يخرج الآن.. أما قرب الساعة فقد أخبر الله عنه بقوله عز وجل: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ (القمر).. ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ (الأحزاب).. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ (المعارج).. ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾ (النبأ).

فمن صفات القيامة قربها.. ولكن العبرة ليست بتوقيت قيام الساعة بل بالاستعداد لها.. لمن يؤمن بها.

- ماذا تعني بهذه العبارة؟!

- أعني أن الإيمان بالساعة يستوجب الاستعداد لها، وإلا فما قيمة الإيمان بـ (يوم الآخر).. (يوم الدين).. (يوم الحساب).. وفيه ما فيه من أهوال.. ثم المآل.. الجنة أو النار؟! من يؤمن بكل هذا لابد أن يستعد له.

- ولكن المرء بفطرته.. إذا رأى بعض العلامات فإنه يعتبر ويخاف ويرجع عن التمادي في المعاصي.

- إن ظهرت العلامات الكبرى.. فلا توبة.. كما أخبر الرسول ﷺ.. «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون.. وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها.. وقرأ الآية**»: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ (الأنعام)» متفق عليه.

فمن كان مؤمناً من قبلُ بقي على إيمانه، ومن كان كافراً بقي على كفره.. وكذلك في حديث الدابّة.. وهي من العلامات الكبرى.. تَسِم الناس على وجوههم.. (مؤمن).. (كافر).. وهكذا تتوالى العلامات الكبرى بعد ذلك كحبات المسبحة.. الدجال.. يأجوج ومأجوج.. والنار التي تحشر الناس.. هذه كلها تقع.. وقبل النفخة التي تعلن قيام الساعة يكون المؤمنون قد ماتوا.. فلا تقوم الساعة على مؤمن!!!

كان جابر ينصت باهتمام.

- وهذه كلها نؤمن بها من باب الإيمان بالغيب ذلك أنها جاءت في كتاب الله أو أخبرنا عنها الرسول ﷺ.. أما العبرة فهي الاستعداد لذلك اليوم الذي لن يقوم علينا.. والسؤال الدائم: «**ما أعددت لها؟**» متفق عليه، فساعة كل منا تقوم لحظة موته.. وحيث أننا لا نعلم هذه اللحظة وجب علينا أن نكون على استعداد دائم لها فإن أحدنا لا يدري بأي أرض يموت.

ماذا أعددت لها؟

- الحديث في البخاري ومسلم.. عن أنس بن مالك:

سأل رجل رسول الله ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «**ما أعددت لها؟**» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله.. قال: «**أنت مع مَنْ أحببت**».

- لماذا لم يجب الرسول ﷺ الرجل كما أجاب عن ذات السؤال في حديث جبريل.. «متى الساعة؟» . فقال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل؟**»، هكذا بدأ صاحبي حواره.. وهو من المتتبعين للأحاديث المتعلقة بذات الموضوع.

- السائل في الحديث رجل من الأعراب.. فقال الشُرّاح.. أجابه بما يناسب حاله؛ لأنه لو أجابه بما أجاب جبرائيل ﷺ.. لخشي عليه من الفتنة وربما الشك في أمر الساعة، فأراد الرسول ﷺ أن يثبت عند الأعرابي قيامها.. وذلك بالاستعداد لها.

كان المجلس يحوي قرابة الخمسة عشر رجلاً.. قبل أن يحين موعد العَشاء.. أصبح الجميع متابعاً للحوار.. سأل أحدهم - لم أكن أعرف اسمه لقلة اختلاطي بأصحاب هذا المجلس - دعاني صاحبي كضيف:

- أليس في هذا تقليل من شأن الفرائض من صلاة وصيام وزكاة؟

- يكون تقليلاً لو عُنيت الفرائض.. ولكن روايات الحديث الأخرى تذكر «كثير نافلة صلاة ولا صوم ولا صدقة».. فالمقصود أنه لم يكن يكثر

من النوافل.. وإنما لا شك أنه يأتي بالفرائض كاملة.. وهذا يشبه حديث ذلك الأعرابي الذي سأل عن الواجبات.. فقال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال ﷺ: «**أفلح إن صدق**» متفق عليه.

والشاهد في الحديث مكانة هذه العبادة القلبية وهي حب الله ورسوله ﷺ.. وذلك بتتمة بعض الروايات.. قال: فقلنا: ونحن كذلك؟ قال ﷺ: «**نعم**» . يقول أنس: ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً، وفي رواية أخرى:

«**فلم أر المسلمين فرحوا فرحاً أشد منه**».

استأذن أحدهم بالسؤال:

- ولكن مكانة الرسول ﷺ في الجنة في أعلى منزلة.. والصحابة تتفاوت منازلهم.. فمنزلة أبي بكر أعلى من الجميع.. وكذلك التابعون لا يبلغون منزلة الصحابة.. ونحن أبعد ما نكون من منزلة القرون الأولى.. فكيف نكون معهم مع تفاوت المنازل في الجنة.. كما أخبر الرسول ﷺ: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم.. قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء ولا يبلغها غيرهم، قال: بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين**» متفق عليه.

- إن المعية لا تقتضي تساوي المنازل، وهذا مشاهد في الدنيا، ترى تفاوت الناس في المكانة العلمية أو الشرعية أو المادية وتراهم مع بعضهم.. وفي الجنة لا شك أن المنازل تتفاوت تفاوتاً كبيراً ولكن من أحب أحداً كان معه.. يراه.. يلتقيه.. يجالسه.. والأحاديث في معية الأحباب

كثيرة.. كما في الصحيحين: «**المرء مع من أحب**».. وفي رواية: «**يحشر**».. وفي الجنة كذلك.. وفي المحشر ينادي اللّٰه عز وجل.. «**المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء**» الترمذي وصححه الألباني.. ولذلك ورد في بعض روايات الحديث بيان ذلك: «**إن الرجل يحب القوم ولمّا يلحق بهم**».. أي قصرت أعماله عن أعمالهم.. فاللّٰه سبحانه وتعالى من تمام نعمته على هؤلاء يجعلهم مع بعضهم البعض.. مع تفاوت المنازل.

وبالطبع لا أحتاج أن أبيّن أن «حب اللّٰه ورسوله ﷺ».. ليس مجرد ألفاظ وكلمات.. بل إخلاص واتباع.. فإن اللّٰه لا يحب المرائين ولا المبتدعين.. والرسول ﷺ يتبرأ من أصحاب البدع؛ فمن أراد أن ينال هذه المنزلة يجب أن يعمل لأجلها.. قلباً.. وجسداً.. ويدعو اللّٰه بعد ذلك.

يوم التغابن

- أليس «الغبن».. الشعور بالنقص والظلم؟!

- بلى.. «التغابن» تفاعُلٌ من «الغبن».. الذي هو أخذ الشيء دون قيمته فيغبن المؤمنون الكافرين.. وذلك أن لكل كافر منزلاً في الجنة لو كان آمن.. فيعطيه الله للمؤمن زيادة في حسرة الكافر وعذابه.. وأصل «الغبن» في البيع والشراء.

- وكيف يكون غبن المؤمن؟!

- غبن كل مؤمن يكون بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام.. وذلك أنه خسر شيئاً عظيماً كان في متناوله.. فقد جاء في البخاري.. عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**لا يدخل أحد الجنة إلا أُري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحد إلا أُري مقعده من الجنة - لو أحسن - ليكون عليه حسرة**» وفي الحديث الآخر: «**ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار.. فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ (المؤمنون) صححه الألباني. وفي رواية «**كلُّ أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول:لو أن الله هداني، فيكون عليهم حسرة، وكلُّ أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكراً، ثم تلا رسول الله ﷺ** ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (الزمر) السلسلة الصحيحة.

كنت وصاحبي آيبَين بعد صلاة الفجر من المسجد الحرام آخر يوم

اثنين من شهر شعبان، وكان إمام الحرم قد قرأ سورة التغابن.. فلما بلغ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ (التغابن: ٩).. ما استطاع أن يتجاوزها غلبه البكاء.

تابعت حديثي: وهذا من أنواع العذاب.. سَمِّه إن شئت: «العذاب النفسي».

نظر إليَّ مستغرباً: عذابٌ نفسيٌّ؟!

- نعم.. وهو أيضاً عذابٌ شديد.. مثلاً عندما يخبر الله عز وجل عن أهل النار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ (غافر).. وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (الأعراف) وقوله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ (فاطر)، ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (الزخرف).. وقالوا: ربما أشد آيات (العذاب النفسي) على الكافرين قوله عز وجل: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ (النبأ).

بلغنا مقر إقامتنا.. اختلفنا.. هل نأخذ قسطاً من الراحة أم نتناول طعام الإفطار.. لم نتفق.. فذهب كل منا ليفعل ما يناسبه.

أبواب الجنة

(بوبدر) لا تفوته فريضة في المسجد -في غير رمضان- أما في رمضان فربما مكث في المسجد أكثر مما يمكث في بيته في النهار.

- دعني أبشرك بحديث رسول الله ﷺ؟

- هات.. فوالله إن أحدنا بحاجة لما يعينه على دينه.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن للمساجد أوتاداً: الملائكة جلساؤهم إن غابوا يفتقدونهم، وإن مرضوا عادوهم، وإن كانوا في حاجة أعانوهم**». السلسلة الصحيحة «الألباني: حسن صحيح».

ما كدت أنتهي من الحديث حتى قال:

- اللهم اجعلني منهم ولا تحبط عملي بما تعلم من حالي.. (وتابع): كنت أريد أن أسألك عن حديث أبواب الجنة.

- الذي قرأناه بالأمس؟!

- نعم.. هل هي ثمانية أم أكثر؟!

- بتتبع الأحاديث نرى الأدلة على أنها ثمانية هي الأقوى.. ومن زاد عن هذا العدد لم يأت بدليل صحيح.. فالذي جاء في البخاري ومسلم: «**فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد نُودي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام نُودي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة**».. هذه أربعة، وجاء في حديث قيس بن سعد بن عبادة مرفوعا بلفظ: «**ألا أدلك على باب من أبواب الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**» أخرجه الترمذي (صححه

الألباني).. وكذلك جاء في حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «**الأب أوسط أبواب الجنة...**» وكذلك «الأم» فبر الوالدين أوسط أبواب الجنة.. فهذه ستة أبواب.

وهناك «الباب الأيمن».. وهذا يدخل منه من لا حساب عليه... كما في الحديث المتفق عليه.. «**يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب**».

قاطعني: هؤلاء هم السبعون ألفا الذين ورد ذكرهم في حديث عكاشة بن محصن؟

- نعم... ولكنهم أكثر من سبعين ألفا... كما في حديث أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربي**» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.

فهذه سبعة أبواب... والباب الثامن لمن لم يتميز بعبادة معينة... وكان في عامة الناس وكذلك من يخرج من النار بعد العذاب... والله أعلم.

- سمعت حديثا أن هناك «باب التوبة»؟

- هذا الحديث ورد في الطبراني وصححه الألباني: «**قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك... قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم فدعا ﷺ.. فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك**

السلام ويقول: إن شئت أصبح الصفا ذهبا فمن كفر بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين... وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة.. قال: بل باب التوبة والرحمة..» وهذا الحديث لم يذكر «باب التوبة» على أنه من أبواب الجنة وإنما هو من المجاز.. أي إن اللّه يمهلهم لعلهم يتوبون فيرحمهم... ولا يعاجلهم بالعقوبة.. وذلك أن «باب التوبة».. لا يغلق حتى يغرغر الإنسان أو تطلع الشمس من مغربها.. واللّه أعلم.

– وماذا عن باب «الكاظمين الغيظ»؟!

– لم أجد فيه حديثا.

– هكذا نكون وصلنا إلى أن الأبواب الثمانية هي: «باب من لا حساب عليه»، «باب الجهاد»، «باب الصلاة»، «باب الريان»، «باب الصدقة»، «باب الذكر»، «باب بر الوالدين»، الباب العام.

– نعم وهناك تعليق جميل على حديث أبواب الجنة.. وذلك أن معظم الناس يتميز بعبادة أو خصلة خيرٍ معينة... فمن تفضل اللّه عليه بشيء من ذلك يجب أن يستغله ويكثر منه... مثلاً من سهل اللّه عليه الصيام... ينبغي أن يُكثر من صيام الاثنين والخميس وأيام البِيض وغيرها.. حتى يكون من أهل الصيام فيدعى من باب الريان.. أقول: الغالب أن العبد ربما يتميّز بشيء واحد، وقليل هم الذين يتميزون بأكثر من خصلة.. وجاء هذا الحديث في بيان فضل أبي بكر الصديق حيث سأل النبي ﷺ : «**بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة.. فهل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: نعم.. وأرجو أن تكون منهم**» متفق عليه.

الذين لا يحبهم الله

إن القرآن العظيم كتاب كامل فيه ما يحتاجه كل البشر بكل خلفياتهم وثقافاتهم وأخلاقهم للوصول إلى الحق واتباع أوامر الله تعالى، فالقرآن يخاطب الجميع ومن أساليبه الجميلة: بيان أصناف البشر الذين يحبهم الله مثل: «المحسنين»، «التوابين»، «المتطهرين»، «المتقين»، «الصابرين»، «المقسطين»، وفي المقابل.. أصناف البشر الذين لا يحبهم الله.

قاطعني:

- هذا أسلوب نستخدمه نحن الآباء والأجداد مع الصغار.. ولله المثل الأعلى.. نقول للطفل: «نحن لا نحب من يعبث بأغراض غيره» و«لا نحب من يكذب».. و «لا نحب من يؤذي الآخرين».

آسف على المقاطعة، أكمل ما أردت قوله.

كنت في جلسة عائلية ضمت بعض الإخوان والأخوات وأبنائهم.

- هذا الأسلوب يستنهض الناحية العاطفية لدى العبد.. وهو شعور ملازم للعبودية: «كمال الخوف مع كمال الحب لله عز وجل».. فكما أن الخوف مطلوب كذلك الحب الذي يليق بالله عز وجل.. فالعبد ينبغي أن يترك الأمور خوفاً.. وحبّاً.. وربما يغلب أحدهما الآخر.. حسب حال العبد.. عندما يذكر الله أعمالاً لا يحبها.. مثلاً: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (البقرة) فكل أنواع الفساد لا يحبها الله.. فيجب على المؤمن أن يبتعد عن أن يسبب «فساداً».. سواء في المادة أو الأخلاق أو العقائد..

كل فساد لا يحبه الله.. الذين يتلفون الممتلكات العامة أو الخاصة.. على المعنى الأول.. أو الذين يفسدون عقائد الناس وأخلاقهم.

- وكيف وردت هذه الصفة في كتاب الله؟

- وردت في سورة البقرة.. في بيان فئة من البشر: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (البقرة) وكذلك وردت فيمن يتسبب في الإفساد بين الناس: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (المائدة) وكذلك في النصيحة التي أسديت إلى قارون صاحب الكنوز: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (القصص).

فذكر الله كل أنواع الفساد.. وأنه سبحانه وتعالى لا يحب الفساد في الأرض.. بل يحب الإصلاح.. المادي.. والأخلاقي.. والإنساني.

يحب الذين يعمرون الأرض.. ويزرعونها.. يحب الذين ينشرون الخير.. ويصلحون بين الناس.. يحب الذين يدعون إلى الخير.. وينشرون السلام.. ويدعون الناس إلى توحيد الله.. وعبادة الله.. وإلى الأخلاق الفاضلة.. والسلوكيات القويمة، هؤلاء يحبهم الله، وأولئك لا يحبهم الله.. من عرف ذلك.. سعى أن يكون من هذه الفرقة بسلوكياته.. وعقائده.. يرجو أن يكون فيمن يحبهم الله.

الذين لا يحبهم الله (٢)

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ (البقرة). ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (آل عمران).

سألني: وهل بعد الكفر ذنب؟

- ماذا تعني؟!

- أعني أن الآية من سورة البقرة وصفت الكافر بالإثم.. ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.. والآية الأخرى ذكرت ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.. وتعلم المثل الذي يقول: «ليس بعد الكفر ذنب».

- نعم هناك فرق بين (الكافر الأثيم) و(الكافر).. (الكفر) يُخلِّد صاحبه في نار جهنم.. ولا يخرج منها مطلقاً.. ولكن جهنم دركات.. منازل بعضها تحت بعض.. وأنواع العذاب تشتد كلما نزلت الدركة.. فالمخلدون في النار عذابهم يتفاوت حسب ما ارتكبوا بعد الكفر من آثام.. في سورة النحل يقول الله عز وجل.. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (النحل). فالكافر الذي يعمل الخير والكافر الذي يكف شره عن الناس ولا يؤذي المسلمين، ليس كالكافر الذي يحارب المسلمين ويصد الناس عن الحق والهداية.. وبالطبع هذا الأخير يبغضه الله أشد من الأول.

وافقني صاحبي: كنت أعرف ما تقول ولكن لم أكن استطيع أن أصفه بكلمات كما فعلت أنت..

- واسمع قول الله تعالى.. ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ (مريم)، يقول في (أضواء البيان): «لنستخرجن ولنميزن من كل طائفة من طوائف الغيّ والفساد أعصاهم فأعصاهم، وأعتاهم فأعتاهم، فيبدأ بتعذيبه وإدخاله النار على حسب مراتبهم في الكفر والإضلال والضلال»... وهناك عذاب على الكفر وآخر على الصدّ عن سبيل الله.

كنت وصاحبي نتمشى بعد صلاة التراويح وبعد أن تناولنا شيئا من المرطبات:

- وهل يشعر الكافر أن هناك فرقاً بين عذاب وعذاب؟!

- في الحديث.. «**إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشِراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل.. ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذابا**» البخاري ومسلم.. فهذا الرجل أخف أهل النار عذاباً.. ولكنه يشعر بأنه أشدهم عذاباً.

قاطعني: ومَنْ الأشد عذاباً والعياذ بالله؟

- الذين في الدرك الأسفل من النار.. المنافقون نفاقاً اعتقادياً وعتاة الكفار.

- وماذا عن الموحدين الذين يدخلون النار لفترة ثم يخرجون؟

- هؤلاء ينالون جزاءهم على قدر سيئاتهم.. إن لم يغفر الله لهم ولكن كل أحد يدخل النار.. ولو بغمسة واحدة.. يرى أنه أشد الناس عذاباً.. وذلك أن عذاب الله (أليم).. و(شديد).. وإن كان مجرد غمسة والعياذ بالله.

الذين لا يحبهم الله (٣)

الظالمون

«**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**» مسلم.

- وما هو الظلم؟!

- خُلُق سيئ أشدُّه الشرك وأيسره اقتطاع حق الآخرين ولو عُود من أراك.

- إنه لشديد!

- إسمع حديث النبي ﷺ.. «**حق اقتطع من امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة**» فقال له رجل: وإن كان يسيراً يا رسول الله؟ قال: «**وإن كان قضيباً من أراك**» رواه مسلم.

لم يُخْفِ صاحبي استغرابه من شدة وعيد الحديث:

- هذا يعني أنه يخلد في النار ولا يدخل الجنة.. بسبب عود من سواك؟

- كلا.. لا تفهم الحديث كما تريد.

- هكذا لفظه.

- إجمع كل الأحاديث واقرأ ما قاله العلماء حتى تخرج بالفهم الصحيح، واسمع الحديث الآخر: «**فمن قضيت له من أخيه شيئاً فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها يوم القيامة**» (السلسلة الصحيحة)، حتى

إذا قضى القاضي بحكم.. قانوني.. لك وأنت تعلم أنه لا حق لك فيه فإنما هو ظلم يعذب به الظالم يوم القيامة.

- وكيف يكون الشرك ظلماً؟!

- كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ (لقمان).. فهذا أعظمه، ومن الظلم.. كتمان شهادة الحق في دين الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٤٠﴾ (البقرة:)، ومن افترى على الله الكذب: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٢١﴾ (الأنعام).. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٩٣﴾ (الأنعام)، ومَن أعرض عن الحق وقد تبيّن له: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾ (الكهف).

فهذا أعظم الظلم.. ويأتي بعد ذلك ظلم الناس للناس.. بأكل الحقوق ومنع الواجبات وقطع الأرحام وشهادة الزور.. وكل وسيلة تنتهي بأخذ غير صاحب الحق شيئاً.

- ولكن لم تُبيّن لي معنى الحديث الأول الذي بدأت به.

- «**أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة**»؟

- نعم.

- معناه أن عمله يوجب عليه دخول النار.. إلاّ أن يُرجِع الحق إلى صاحبه بحسناته.. أو بأن يصلح الله بينهما يوم القيامة.. أما عمله فيوجب عليه دخول النار.. ويَحرِمه من دخول الجنة ابتداء.. فإن لم يغفر الله له ويأخذ صاحب الحق حقه.. فإنه يدخل النار ما شاء الله له ثم يكون مآله إلى الجنة.. إن لم يمت على الشرك؛ فإن الشرك هو الذنب الوحيد الذي يخلّد صاحبه في النار مطلقاً لا يخرج منها أبداً. ولا يغفر له الله عز وجل.. وهو أعظم أنواع الظلم.. والله لا يحب الظالمين.. ولكنه عز وجل يبغض بعضهم أكثر من بعض.

الذين لا يحبهم الله (٤)

المستكبرون

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (النحل).

- وكما الظلم.. كذلك الكبر.. أشده التكبر عن الحق والاستكبار عن التوحيد.. وهذا فعل المشركين وأقله الاستعلاء على الناس كما أخبر ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**» (صحيح مسلم) في اللغة: «غمط الناس». احتقارهم والازدراء بهم.

- المتكبر لا يدخل الجنة.. أليس كذلك؟

- في الأمر تفصيل فحديث النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**» (السلسلة الصحيحة).. والحديث الآخر: «**من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبّه الله لوجهه في النار**» (صحيح الترغيب والترهيب).. هذان الحديثان وغيرهما.. لا تُحمل على إطلاقها وظاهرها.. وذلك أن الذنب الوحيد الذي يؤدي بصاحبه للخلود في النار وحرمانه من الجنة هو الشرك.. ولكن الكبر ذنب عظيم يحرم صاحبه من دخول الجنة ابتداء وهو بهذا الذنب يستحق النار.. إن لم يغفر الله له.. وإذا دخل النار.. وقد مات على التوحيد.. فإنه يخرج منها بعد أن ينال جزاءه متى يشاء الله عز وجل: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾.

صاحبي مثل عامة الناس.. راتبه يكفيه لأداء واجباته الأسرية.. ربما احتاج أحياناً إلى المساعدة.. أبناؤه ما زالوا في المرحلة الثانوية

والجامعية.. كنا بعد صلاة العصر نتمشى بجانب البحر بعد أن اعتدل الجو الصيفي وأصبح بالإمكان الخروج عصراً.

ولماذا يتكبر الإنسان؟! إن الذي يتكبر.. لا يتدبر.. هذا الكون الشاسع.. خاضع لله.. والإنسان لا شيء أمام هذه المخلوقات.. عندما يمرض بسبب أصغر الفيروسات أو الميكروبات لا يستطيع التحرك من فراشه.

ترك لي المجال لأعلق:

- من مادة الكبر.. (كبير).. ووصف الله عز وجل نفسه بأنه كبير ومن أسمائه عز وجل.. الكبير: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ (الرعد).. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ (الحج، لقمان: ٣٠)، و﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣﴾ (سبأ) ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾ (غافر).. وهذه الصفة ارتضاها الله عز وجل لنفسه.. فهو (ذو الكبرياء).. ولا يرضى لأحد من خلقه أن ينازعه هذه الصفة.. وتوعد من يفعل ذلك بالعذاب؛ ولذلك كان أول عذاب المتكبرين في المحشر أن ينادي الجبار عز وجل.. «**أنا الملك.. أين الجبارون؟ أين المتكبرون**» (رواه مسلم).. تخيل موقف المتكبر عندما يسمع هذا الإنذار الإلهي.. يوم القيامة.. «**يحشر المتكبرون أمثال الذر (النمل والدواب الصغيرة) في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يقال له (بولس) تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال**» رواه النسائي والترمذي واللفظ له (حسنه الألباني).

كانت ردة فعل صاحبي تلقائية: أعوذ بالله.. صدق الله.. وعدل.. لقد جازاهم من جنس عملهم فمن يريد أن يكون من المتكبرين بعد هذا الوعيد؟!

الذين لا يحبهم الله (٥)

المعتدون

- العدوان.. أظهره في القتال.. ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة).

ومنه تعدي حدود ما حرم الله.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (المائدة).

وفي اللغة.. (عدا عليه).. جار.. و(عَدْوًا).. تعدياً.. و(العدوان).. الجَوْر وتجاوز الحق.. وتعدي الحدود..

استدرك صاحبي:

- سمعت أحد المشايخ يتحدث عن التعدي في الدعاء؟ وذكر آية لا تحضرني.

- لعلك تقصد قول الله تعالى.. ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الأعراف).

- نعم.. هي هذه الآية..

إن الاعتداء في الدعاء كما جاء في الأثر عن أبي نعامة عن ابنٍ لسعد بن مالك قال: سمعني أبي وأنا أقول: **اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا، وكذا؛ فقال يا بُني: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول سيكون قوم يعتدون في الدعاء فإياك أن تكون منهم إنك إن أعطيت الجنة أعطيتها وما فيها من**

الخير.. وإن أُعذتَ من النار أُعذتَ منها وما فيها من الشر» أبوداود (حسنه الألباني).. ويُروى هذا الأثر عن عبدالله بن مغفل.. أنه سمع ابنه يقول: **«اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إن دخلتها.. فقال: أي بُنَي سلِ الله الجنة وعُذْ به من النار فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء»** صحيح أبي داود.

- يكثر مثل هذا في رمضان.. مبالغة من بعض الأئمة في دعاء القنوت.

- نسأل الله لنا ولهم الهداية.. ومن أشد الاعتداء والعدوان التعدي على الله عز وجل.. بالشرك.. والكفر.. والإلحاد في أسمائه وصفاته.. ومعاداة رسله.. والتعدي على شريعته.. ومحاربة أوليائه.. وهذا كله لا يحبه الله.. بعضه كفر.. وبعضه دون ذلك.. ولذلك حرم الله على المؤمنين الاعتداء.. حتى وإن كان في ميدان القتال.. حيث تكون دوافعه قوية.. خصوصاً حال الغلبة.. فالمؤمن لا يعتدي.. ولا يتعدى.. فإن عاقب.. عاقب كما عوقب: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (البقرة). ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ (البقرة والمائدة:٩٤).

- وما معنى الدعاء (تضرعاً.. وخُفْيَة)؟!

- التضرع.. الاستكانة والخضوع.. و(خُفْيَة).. خفض وسكون، ادعوه لحاجتكم من أمر الدنيا والآخرة.. وفي تفسير آخر للعدوان في الدعاء.. عن سعيد بن جبير: لا تدعوا على المؤمن والمؤمنة بالشر اللهم: أخزه اللهم العنه، ونحو ذلك.. فإن ذلك عدوان.

الذين لا يحبهم الله (٦)

﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ (الأنعام).

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الأعراف).

- السَّرَفُ.. ضد القصد.. والإغفال والخطأ.. وفي النفقة: التبذير والإنفاق في معصية الله قليلاً كان أو كثيراً.. قال سفيان: «لم يسرفوا.. لم يضعوه في غير موضعه».

- أظن أنني قرأت أن (السَّرَفُ) لغة: تجاوز ما حُدَّ لك.. في كل شيء.

- أحسنت.

- لقد حفظته من (تاج العروس).. ولكن من هم (المسرفون) الذين لا يحبهم الله؟!

- الله لا يحب جميع (المسرفين)... ولا يحب (الإسراف).. ولكنه سبحانه يبغض بعض المسرفين أكثر من بعض.. فقد وصف فرعون بأنه من المسرفين: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (يونس)، ووصف المعادين للأنبياء عموماً بذلك فقال عز وجل: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾ (الأنبياء)، أي المتجاوزين الحد في الكفر والمعاصي.. ووصف قوم صالح بذلك أيضا: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾، بل حكم

على المسرفين عموماً بالنار: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾ (غافر).

قاطعني:

- هل من يسرف في الطعام والثياب في النار؟

- كلاّ ليس هذا معنى الآية.. ولكن الآية فيمن تجاوز الحد في الاعتقاد.. ولكن الجميع مذموم لا يحبه الله عز وجل.. والآية التي وردت في الأكل والشرب والثياب.. قال المفسرون في معناها:

﴿لا تسرفوا﴾: لا تمنعوا الصدقة فتعصوا.. ولا تنفقوا ما رزقكم الله في معصية الله.. ولا تأكلوا أموال غيركم.. كل ذلك صحيح.

- سمعت قولاً أن الله جمع نصف الطب في آية.. ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾..

- كلام جميل وصحيح.. وكذلك قال ابن عباس: «كُلّ ما شئت والبس ما شئت.. دون سرف ولا مخيلة»..

فالإسراف في الطعام والشراب والثياب مذموم.. وفي الحقوق محرّم.. وفي العقيدة كفر..

- كم مرة ذكر الله المسرفين في كتابه العزيز؟

- (المسرفين) وردت سبع مرات.

- (مسرفين) وردت مرة واحدة في الزخرف الآية (٥).

- (أسرفوا) مرة واحدة في الزمر الآية (٥٣).

- (يسرف) مرة واحدة في الإسراء الآية (٣٣).

ولا شك أن أرجى آية في كتاب الله هي التي في سورة الزمر: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ مهما كان من العبد.. إذا تاب صادقاً قَبِله الله.. بل فَرِحَ بتوبته وإن كان من قبلُ من أشد المسرفين..

الذين لا يحبهم الله (٧)

﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (القصص).

- لابد أن يكون هذا الفرح محرماً حتى لا يحبه الله..

- نعم ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ﴾.. لا تأشَر.. من الأَشَر والبَطَر.. وذلك أنه بغى على بني إسرائيل (قومه).. وقيل إنه كان من أقرباء موسى ولكن فرعون ولاّه.. وقرّبه فجمع المال وبغى على قومه..

- وهناك آية أخرى في الفرح.. أتعرفها؟!

- تعني قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (غافر).

أم قول الله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (آل عمران)، أم قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الرعد).

أم قول الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (يونس).

- عَنَيتُ الآية من سورة آل عمران.

كنت وصاحبي نقلّب المصحف الميسر (مجمع الملك فهد).. الذي صنّفه نخبة من العلماء وأوردوا تفسير القرآن بطريقة سهلة لعامة الناس..

- معظم الآيات فيها ذم (الفرح).

- إذا كان الفرح لأجل الدنيا.. فهو مذموم.. ومعظم الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة أتت بمعنى (البغي).. و(الأشر).. و(البطر).. ففي آية آل عمران.. هؤلاء الخاسرون يفرحون بأنهم نبذوا الكتاب واشتروا به ثمناً قليلاً.. وهكذا حال.. من يفرح (يسر قلبه) بالوقوع في المعصية ومخالفة أوامر اللّه.. هذا دليل (الطّبع) على القلب فلا ينكر منكراً.. بل يفرح بالمنكر.. ولذلك يتوعدهم اللّه بأشد العذاب.

- وماذا عن الآية من سورة الرعد؟!

- هذه نزلت في أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول ﷺ.. كعبداللّه بن سلام وكعب الأحبار، وقيل هم ثمانون من النصارى، أربعون بنجران واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن.. فهؤلاء فرحوا بما أنزل على الرسول ﷺ؛ لأنه موافق لما كانوا يؤمنون به.. فأسلموا.. وأما الأحزاب الآخرون - من أقوامهم - فقد أنكروا هذا الأمر كما هو معروف في قصة عبداللّه بن سلام.. وأَذِن اللّه للمؤمنين أن يفرحوا بما تفضل اللّه عليهم من الهداية والتوفيق للحق.. بل أتى الفعل بصيغة الأمر ﴿فليفرحوا﴾.. من سورة يونس.. ولا شك أن المؤمن يُسَر بنعم اللّه.. ويفرح ولكن يشكر اللّه ويؤتي حق النعمة ولا يبطر ولا يطغى.. كما هو حال معظم الناس.. ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ (العلق).

ذنوب لا كفارة لها

صاحبي يدخل في تفاصيل الأمور ويستمر في السؤال حتى عن أدق التفاصيل:

- ما كفارة الذي يفطر في رمضان؟

- لماذا أفطر؟

- هكذا.. دون سبب.

- هل هو مقر بفَرَضية الصيام أم أفطر منكراً أن الصيام واجب؟!

- لنذكر الحالتين.

هكذا كان حواري مع صاحبي ونحن في طريقنا لتسجيل برنامج إذاعي في إذاعة القرآن الكريم:

- إذا كان منكراً لفَرَضية الصيام، مستحِّلاً للإفطار فإنه يكفر.. بمعنى أنه لا تنفعه الشهادة اللفظية التي ينطق بها لسانه ولا صلاته التي يصليها أحياناً ولا حتى اسمه (محمد).. أَمّا إذا أفطر متساهِلاً في قضية الصيام، متقاعساً عن أداء هذه الفريضة، مقِراً بوجوبها وبتقصيره، فهذا مذنب ذنباً عظيماً.

قاطعني:

- وما كفارته إذا أفطر تكاسلاً متعمداً؟

- لا كفارة له. بل عليه أن يتوب.

- كيف تكون هناك كفارة لمن يأتي أهله وهو صائم.. ولا كفارة لمن يفطر متعمداً؟

- الأمر بسيط.. هذا الذنب أعظم من ذاك، هناك ذنوب عظيمة لا كفارة لها، وذلك لبيان شدتها: «الذنب الذي له كفارة أهون من الذنب الذي لا كفارة له».

- وماذا يفعل هذا الذي قضى سنوات من عمره لا يصوم، ولا يصلي عمداً، دون علة عدا الكسل والتهاون بهذه العبادات؟

- هذا عليه أن يتوب إلى الله توبة نصوحاً، وعليه أن يكثر من الاستغفار والأعمال الصالحة، والتوبة من الذنب تزيله، وفي الحديث:

«**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**» (حسنه الألباني).

- وأيضا في الحديث: «**التوبة تجبُّ ما قبلها**».

- هذا الحديث أورده الألباني في (السلسلة الضعيفة)، وقال: «لا أعلم له أصلا».

- كنت أظنه صحيحاً من كثرة ما أسمعه.. وما الذنوب التي لا كفارة لها؟

- اليمين الغموس.

- أليست كفارة اليمين عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام؟!

- هذه كفارة الحنث باليمين.. كأن يقسم إنسان متعمداً ألا يدخل

بيت أخيه، أو أَلّا يكلّم صاحبه، فهذا يكفّر عن يمينه وينتهي الأمر، أما اليمين الغموس فهي أن يحلف بالله كاذباً وهو يعلم، وقد بيّنها ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: «**كنا نعد اليمين الغموس من الذنب الذي ليس له كفارة، قيل: وما اليمين الغموس؟ قال: الرجل يقتطع بيمينه مال الرجل**» صحيح رواه الحاكم.

- هل تصدق.. لأول مرة يخطر على بالي أن هناك ذنوباً لا كفارة لها، وأنها من أعظم الذنوب؛ ولذلك لا علاج لها إلا التوبة الصادقة إلى الله، والندم، والاستغفار والإكثار من الصالحات؛ لأنني كنت أظن أن تارك الصلاة يصلي مع كل فرض فرضاً بعدد السنين التي تركها، وكذلك الصيام.. حقاً إن العلم نور.

الكبائر

- لماذا شدد النبي ﷺ على شهادة الزور، عندما سُئل عن أكبر الكبائر؟

- تعني حديث أنس بن مالك.. أن رسول الله ﷺ سُئل عن أكبر الكبائر فقال: «**الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين**»، ثم قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ شهادة الزور وقول الزور، شهادة الزور وقول الزور، شهادة الزور وقول الزور. وكان متكئاً فجلس فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت**» (إشفاقا). (متفق عليه).

هذا الحديث وغيره - حيث يبين النبي ﷺ الكبائر - يذكر ذنوباً حسب حال الحضور.. ففي حديث.. بيّن ﷺ أن أكبر الكبائر في جواب من سأله: **أي الذنب أعظم؟ فقال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك، ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، ثم أن تزاني حليلة جارك**» (**متفق عليه**).. وفي حديث آخر: «**الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والسحر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا**» (متفق عليه).. يقول النووي في (شرح مسلم).. بعد أن ذكر جملة من الكبائر: «ويختلف أمرها باختلاف الأحوال والمفاسد المترتبة عليها، وعلى هذا يقال في كل واحدة منها: هي من أكبر الكبائر، وإن جاء في موضع أنها أكبر الكبائر، كان المراد: من أكبر الكبائر».. هذا عدا الشرك طبعاً.

كنت وصاحبي نتحاور في مكتبي بعد صلاة العصر.. بانتظار ثالث.

- هل لي بمزيد توضيح؟!

- الشرك.. هو أكبر الكبائر مطلقاً.. هو الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله عز وجل.. وهو الذنب الذي يخلد صاحبه في نار جهنم.. وكذا النفاق الاعتقادي بالطبع.. وهو أسوأ من الشرك.. فإذا قلنا الشرك، فالنفاق الاعتقادي من باب أولى.. أما الذنوب التي دون الشرك.. فهي البدع.. والكبائر.. والصغائر.. بهذا الترتيب.

قاطعني:

- وهل البدعة أشد من الكبيرة؟!

- نعم.. البدعة إحداثٌ في الدين ما ليس منه.. يظنّ صاحبها أنه يتقرب إلى اللّه، ولا يزداد من اللّه إلا بعداً، وربما اتبعه في بدعته آخرون يظنون أنه على طاعة، فيأخذ إثمهم حتى بعد موته.

استغرب صاحبي، ولكنه اقتنع، وتابعت حديثي:

- والكبائر بعد ذلك.. وكلها تحتاج إلى توبة إن أراد صاحبها ألا يحاسب عليها يوم القيامة؛ وذلك أن الصغائر تزول بالمكفرات كالوضوء والصلوات والخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة إلى الصلاة..؛ لأن الحديث فيه: «**ما اجتنبت الكبائر**».. فالكبائر تحتاج إلى توبة، وإلا فإن صاحبها تحت مشيئة اللّه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، ما لم تكن الكبيرة متعلقة بحقوق آخرين، كسرقة مال، أو شهادة زور، أو غير ذلك.. فإنه يجب أن تُرجَع للناس حقوقهم يوم القيامة حسنات تؤخذ منه ويعطَوْنها، وترتيب الكبائر حسب المفاسد المترتبة عليها.. كلما ازدادت المفاسد اشتدت الكبيرة.

فربما تكون شهادة الزور أشد من قتل النفس؛ لأنها أدت إلى قتل نفس، وأكثر، وربما يكون الزنى أشد من عقوق الوالدين، وكذلك للشخص نفسه، زنى الشيخ أشد من زنى الشاب، وكذلك كذب ذي السلطان أشد من كذب العبد، فالترتيب في الأحاديث ليس مقصوداً لذاته، وإنما لبيان شدة الجميع، وإلا فإن الأعمال توزن بعلم الله، وكل ذنب له ثقل يعلمه الله عز وجل، وإن كان واحداً في مظهره.

الشهــوات

- كما ينبغي على العبد أن يتخذ أسباب الهداية يجب عليه اجتناب أسباب الغواية...

- وما أسباب الغواية؟

- ترجع كلها إلى أصلين.. الشبهات.. والشهوات.

كنت وصاحبي نتمشى على رمال الشاطئ عصر الجمعة.. وقد بدأ الجو يعتدل ولاسيما قرب البحر.

- أليس الصالحون في مأمن من الشهوات؟

- كلا، لا أحد في مأمن إن لم يتخذ الأسباب؛ وذلك أن الشهوات لا حدود لها.. كما قال الله تعالى، مخبراً عن إبليس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ (الأعراف).

- وكيف يتخذ المرء الأسباب للأمان من الشهوات؟!

- لقد ذكر الله تعالى ورسوله ﷺ حقائق عن الشهوات.. ينبغي أن تكون نصب عين كل عاقل:

الأولى: الشيطان يزين القبيح.. حتى يجعل أبشع الجرائم مقبولة عند المجرم، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤﴾ (محمد).

الثانية: الشهوة لا تنتهي مع ضعف القدرة على التمتع بها، فالإنسان

كلما تقدم في العمر قلَّت قوته الشهوانية، ولكن تبقى رغباته.. كما أخبر الرسول ﷺ: «**يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان: حب المال، وحب الدنيا**».. مسلم، وفي البخاري: من حديث أنس بن مالك.. أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن لابن آدم وادياً من ذهب لأحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على مَن تاب**»، فالذي يتتبع شهوة المال، يبقى كذلك حتى نهاية عمره؛ وكذلك جميع الشهوات، تزداد وتملأ قلب الإنسان حتى إذا جاءه الموت يريد أن ينطق بالشهادة ينطق بما كان مشغولاً به في دنياه.. من غناء، أو خمر، أو نساء، أو مال، نسأل الله العافية.

- وما الثالثة؟!

- الثالثة: أن طريق الشهوات مآله النار، ولذة الشهوة مؤقتة مهما طالت، «**حُفّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**» متفق عليه.

وما ذكر الله الزينة في كتابه إلا مبّيناً موقعها الذي يجب أن تكون فيه عند المؤمن: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ (الكهف). وهذه الشهوة خاصة - أعني المال والبنين - حذر الله منها في أكثر من موضع في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ (المنافقون)، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ (التغابن)، فلا بأس من التمتع بهذه الزينة الحلال، ولكن لا ننسى أن ما عند الله خير وأبقى فلا تنشغل بهذه الزائلة عن تلك الباقية.

وفي آية الزينة والشهوات من سورة آل عمران: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ (آل عمران) قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا.. اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه**» وبالطبع لا تخفى عليك حكمة هذه الزينة في الحياة الدنيا.

- تابع: وأخبرني عن الحكمة من تزيين الشهوات؟!

- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ (الكهف) والآية بعدها: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾، فالحياة حتى تستقيم.. حبّب الله هذه الأمور إلى الناس، ولكن حذرهم من الانجراف فيها، بل يتمتع بها وفق ما يحتاج دون تقديمها على الآخرة، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾.

ترك الطاعة لأجل المعصية

وقد اقترب شهر الصوم والطاعات، إقترح عليّ بعض الإخوة أن ألقي خاطرة أذكرهم فيها ببعض القضايا الإيمانية في الصيام، وكان بفضل الله:

- إن الخاطرة ليست موجهة إليكم، فأنتم أهل صلاة في المساجد، وأهل طاعة وإقبال على الله، ولكن ينبغي أن نتوجه جميعاً إلى إخوان لنا لا يحضرون الصلاة، وربما لا يقيمونها كما يحب الله عز وجل، وربما لديهم من الذنوب والمعاصي ما يجعلهم يظنون أنهم ليسوا أهلاً للطاعات بسبب هذه الذنوب، مثلاً الذي يشرب الخمر، وربما كل يوم، والذي يقع في الزنى، والذي يسرق، نريد أن نخاطب هؤلاء وندعوهم إلى الصلاة، والإلتزام بها رغم وقوعهم في هذه الكبائر.

لم يخفَ عليّ استغراب أكثر الحضور، بل أظهره بعضهم جلياً على وجهه.

- نعم نريد أن نصل إلى أهل المعاصي، ونقول لهم: هلمّوا إلى الطاعات رغم ما أنتم فيه.. فيقولون: وكيف لنا أن نصلي ونحن نشرب الخمر؟ نقول لهم: تعالوا إلى الصلاة غير سكارى، وإن شربتم الخمر، نعم لا يجوز أن يصلي أحد وهو سكران، ولكن يجوز أن يصلي المسلم إذا كان يشرب الخمر، وحتى أبيّن لكم هذه القضية فإن لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وكذلك في عمل الصحابة من بعده.

ففي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، فقال صلى الله عليه وسلم: «إنه سينهاه ما تقول..»** (رواه أحمد، والبيهقي، وصححه الألباني)، وفي البخاري عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً اسمه (عبدالله) يلقب حماراً، كان يُضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جلده في الشراب (الخمر)، فأُتي به يوما فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم إلعنه ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تلعنوه، فوالله ما علمت، أنه يحب الله ورسوله»** في الشرح: وردت روايات عدة، أن بعض القوم قالوا: **«أخزاك الله»**، وأيضاً أن الحادثة تكررت مرة في فتح خيبر، ومرة أخرى بعد فتح مكة من صحابِيّين مختلِفَين، وفي بعض الروايات: **«لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان»**، أو: **«لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»**، والشاهد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثبت أن هذا الرجل كان يحب الله ورسوله رغم معصيته وتكرارها، ولا شك أنه كان يصلي مع الصحابة خلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والرجل الآخر كان يصلي، بل النافلة من الليل.

الشاهد أن العبد إذا ترك الصلاة لأجل أنه واقع بالمعاصي، فإنه يستسلم للشيطان، وإنما ينبغي أن يستمر في الطاعات رغم معصيته ويحرص على الفرائض، ولاسيما الصلاة ولا يتركها، ويستعين بها إلى أن يوفقه الله لترك معصيته.

- قاطعني أحدهم لا أعرف اسمه:

- وماذا عن الحديث: **«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا»**؟

- هذا كلام باطل، كما قال الألباني - رحمه الله -: لا يصح سنداً ولا متناً ولا معنى، ونستطيع أن نسوق قصة أخرى، وهي خبر أبي محجن الثقفي، فقد حدّه عمر بن الخطاب سبع مرات في الخمر، بل نفاه إلى جزيرة فهرب، ثم لحق بسعد بن أبي وقاص في معركة القادسية، فلما عَلِم به حبسه بأمر عمر بن الخطاب، ولكنه أَبى إلا أن يشارك في المعركة وتوسل إلى امرأة سعد أن تحل قيده، وعاهدها أنه إن سَلِمَ رجع فوضعته في القيد، وإن استشهد فلا تبعة عليها، وبالفعل شارك في القتال وأبلى بلاء حسنا وعاد إلى حبسه، وعلم سعد بن أبي وقاص بأمره، فأتاه وقال: واللّه لا نجلدك على الخمر أبداً، فقال أبو محجن: واللّه لا أشربها أبدا.

فلا ينبغي لمسلم أن يترك الصلاة لأجل ارتكابه المعصية واستمراره عليها، بل يحافظ على الصلاة بصدق وإخلاص ويسأل اللّه التوفيق والإعانة على ترك المعصية ومن يصدق اللّه يصدقه.

آيات العذاب.. لمن؟

من آفات تقدم وسائل الاتصال أن الأفكار والخواطر والآراء تنتشر أسرع من انتشار النار في الهشيم.. بمجرد أن يذيل المرسل: (رجاءً أنشر).. أتغاضى عن كثير مما يصلني من الأهل والأقارب.. إلا أن يكون حديثاً ضعيفاً أو فهماً خاطئاً في العقيدة أو قضية مخالفة لجمهور العلماء.

بعثت لي ابنتي – وكنت قد نبهتها ألا ترسل كل ما يصل إليها – رسالة قصيرة أننا يوم القيامة نقول: «يا ليتني قدمت لحياتي»؛ فيجب علينا العمل لذلك اليوم!!

هاتفتها.. وربما أثقلت عليها.. بَعَثَت.. بعد أن أنهيت المكالمة: أنا آسفة.. ولكن لماذا هاجمتني بشراسة؟

لم أجبها.. مساء ذات اليوم.. بعد صلاة المغرب زارنا إمام مسجد آخر ألقى خاطرة عن يوم القيامة.. بأنه يوم تَخُفُّ فيه الموازين.. وتسعر جهنم بوقودها من الناس والحجارة، وتبدل الجلود بعد الجلود لشدة العذاب.. وهكذا.

بعد الخاطرة .. شكرت زائرنا.. وطلبت إليه الجلوس لدقائق.

– جزاك الله خيراً على هذه الخاطرة ولكن هذه الآيات التي ذكرت أنها جاءت في كتاب الله هي لبيان مصير الكافرين.. مثلاً قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾. (آل عمران) وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ

ﱡﭐٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﱠ (النساء) وقوله عز وجل: ﱡ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﱠ (الأعراف) وكذلك قوله سبحانه: ﱡ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﱠ (إبراهيم).. وعندما سأل الصحابة رسول الله ﷺ: «**وأينا لم يظلم نفسه..؟**» وذلك عند نزول قول الله تعالى: ﱡ**ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴿٨٢﴾ ﱠ (الأنعام:٨٢).. قال ﷺ : «ليس كما تقولون، ﱡ**وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ**ﱠ بشرك.. أوَلَم تسمعوا قول لقمان لابنه: ﱡ**يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**ﱠ؟ رواه البخاري.

كان صاحبي منصتاً.. لا ينظر إلي:

– صحيح ما تقول وإنما أردت أن أعظ الناس وأخوفهم من عذاب الله.

– لا شك أنك أردت الخير لنا.. ولكن ملاحظتي أننا عندما نستدل بآيات الله عز وجل.. يجب أن نضعها حيث أراد الله سبحانه وتعالى.. ويمكن أن نذكر آيات كثيرة نحث الناس فيها على الخوف من الله.. ومما يحفظ عامة الناس قوله سبحانه: ﱡ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ (البينة).

نعم مطلوب من الواعظ أن يرفع همة الموعوظين ولكن بما يناسب من آيات نزلت وأحاديث النبي ﷺ الصحيحة.. وألاّ نخوف المسلمين بآيات نزلت في الكافرين كقوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩﴾ هذا الكافر، وذلك لقول الله عز وجل بعد ذلك: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٣٣﴾ (الحاقة:٢٥-٣٣) وكذلك لا ينبغي أن نقول لمن قصّر في صلاته: إن سقر مآله لقوله عز وجل: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦﴾ (المدثر).. ولكن نذكره بقول الله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾ (الماعون) فالمسلم لا نخوّفه بآيات نزلت في بيان عذاب الكافرين.

في هذه الدنيا.. كل شيء مؤقت

- أشعر بالشبع من الدنيا، مضت ستون سنة، ذهبت القوة التي كنا نتباهى بها، والعنفوان الذي كنا نتصرف من خلاله، والصحة التي كنا نتمتع بها، ذهبت لذة الشهوات، ولذة الطعام، ولذة النوم، ولذة المزاح، وأصبحت الأشياء لا قيمة لها، والإغراءات لا بريق لها، هل هي حقيقة الأشياء أم تقدم العمر الذي نال منا؟!

هكذا بدأ صاحبي حديثه، وكنا في جلسة هادئة بأحد مقاهي جبل لبنان.. تابع حديثه:

- ها نحن أولاء نتمتع بالجو الجميل، والمناظر الطبيعية، ولكن سرعان ما سينتهي هذا ونرجع إلى الديار، ولا يبقى من هذه اللذة شيء.

شعرت أنه يريدني أن أعلق:

- لقد وصف الله عز وجل هذه الحالة، ولكن أحدنا لا يعرفها على حقيقتها حتى يمر بها، استمع إلى قول الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الروم)، فمن رحمة الله أن يأتي الضعف مع تقدم العمر، حتى تتهيأ للإنسان أسباب الرجوع إلى الله والكف عن المعاصي؛ وذلك أن دواعي المعصية تضعف والرغبة بالشهوات تضمحل؛ فيتجه الإنسان إلى ربه مع تقدم عمره.

هذا مايتعلق بالإنسان، أما الدنيا بالنسبة له فأيضاً بيّنها الله في كتابه، فقال عز وجل: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ (الحديد)،

فهي متاع، والمتاع لغة هو كل ما يستمتع به، والغرور: الخداع، بمعنى أن الدنيا متاع خادع يغرّ صاحبه لا يلبث أن يضمحل ويذهب.

قاطعني: إي واللّه، هذا ما أشعر به.

- هل هو شعور بالحزن؟! أم ماذا؟

- كلا.. وإنما حالة تفكر، لماذا نبذل كل هذا الجهد والوقت في شيء زائل مؤقت، بل هو أشبه بالسراب منه بالماء الحقيقي؟!

- لأننا بشر، خلقنا اللّه لنعيش في هذه الدنيا، نتمتع بحلالها، ونتجنب الحرام فيها، ونعبد اللّه حتى يأتينا اليقين (الموت)؛ فهي فترة ومرحلة من مراحل حياة الإنسان، لا خيار له متى تبدأ ومتى تنتهي، ولكن له الخيار فيما يعمل فيها، والرسول ﷺ بيّن لنا تفاصيل ما نحتاج إليه لنعبر هذه المرحلة بنجاح، فقال ﷺ: «**ما لي وللدنيا؟ وما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها**» (السلسلة الصحيحة) هذه هي حقيقة الدنيا، سنبقى فيها فترة قصيرة مهما عمّرنا، ثم نتركها ونمضي، والسؤال: بماذا سنمضي، بأعمال الخير أم بأثقال تعجزنا في سفرنا إلى الدار الآخرة؟

والعاقل من استثمر معرفته بحقيقة الدنيا للتقرب إلى اللّه عز وجل، ولاسيما إذا تقدم به العمر، ففي هذه المرحلة تضعف أو تزول تماماً دوافع المعاصي، وتفقد اللذات بريقها؛ ولذلك كان الذنب أعظم بعد الستين، ففي البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**أعذر اللّه إلى امرئ أخّر أجله حتى بلّغه ستين سنة**».

العقل والقلب والهوى

- أنا لا أشك أن وظيفة القلب - بعيداً عن رأي الطب - هي أن يعقل.. وذلك لقول الله تعالى في سورة الحج: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج).

- وما وظيفة المخ إذاً؟

- المخ يفكر؛ ويميز.. فيعرف الخير والشر، والمفيد والضار.. وغير ذلك مما هو في هذه الطبيعة المعرفية.. أما القلب فهو الذي يعقل، ويتدبر، ويأمر وينهى.. ومصير الإنسان بين مخه، وقلبه وهواه.

- وما وظيفة الهوى؟

- الهوى هو ما تأمر به النفس الأمارة بالسوء، الشهوات بكل أنواعها من النساء والبنين والأموال والثروات والمناصب والشهرة والملذات، وأهميتها تختلف من شخص لآخر، والهوى مذموم دائماً، ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ (محمد).

- وكيف تعمل هذه الثلاث؟

- الهوى.. يزيّن للإنسان الشهوات ويدفعه للحصول عليها والتلذذ بها.. وغالباً يكون فيما حرم الله، والمخ يعرف أن هذا الأمر محرم ولا يجوز، والقلب هو الذي يأمر وينهى، وأمره نافذ، فإذا كان القلب سليماً، أمر الأعضاء، فامتثلت، فالملك هو القلب والأعضاء جنوده، لذلك أخبر

النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» متفق عليه.

كنت وصاحبي في اتصال هاتفي نتحاور حول موضوع خطبة الجمعة، وكنت أنوي الحديث عن أهمية الوقت.. وتسارع الزمان إلا أن موضوع القلب والعقل أعجبني فغيرت موضوع الخطبة.

– وما المقصود بالمضغة؟

– هي قطعة اللحم التي يمكن مضغها، وشبه النبي ﷺ القلب بالمضغة لبيان صغر حجمه مع عظم دوره في تحديد مصير الإنسان.

والقلب هو مكان الهداية.. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (التغابن: ١١) وهو مكان التقوى.. «**التقوى هاهنا**» مسند الإمام أحمد (صححه الأرناؤوط)، وهو مكان التدبر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد)، وهو الذي ينظر الله إليه دون بدن الإنسان وظاهره: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم وصوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم**» (مسلم).

قاطعني:

– أراك تحمست لموضوع القلب؟

– نعم إن الأمور القلبية دائماً أهم من الأمور الظاهرية، والعبادات القلبية أعظم من العبادات البدنية، فأساس الأعمال النية، ومكان النية القلب، ومكان النفاق القلب كذلك؛ ولذلك كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**». (السلسلة الصحيحة).

علامات التقوى

- كثيراً ما أقرأ الآيات التي تبين جزاء المتقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧﴾ (الطور)، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤﴾ (القمر)، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١﴾ (المرسلات)، وغيرها من الآيات.. وأتساءل: من هؤلاء؟

- المتقون؟

- نعم.

- لقد ذكر الله تعالى في آيات كثيرة أخلاق المتقين وأعمالهم وعقيدتهم، ولنبدأ بحديث النبي ﷺ: «**التقوى هاهنا.. التقوى هاهنا.. التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره**» (مسند الإمام أحمد) (صححه الأرناؤوط) فأعمال القلوب أعظم وسيلة للتقوى.. الصالح منها يثبت التقوى، والفاسد منها يزيل التقوى، فمن التقوى تعظيم شعائر الله.. كما قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ (الحج).. تعظيم التوحيد.. وتعظيم الصلاة.. وتعظيم حرمات الله.. والعبادات.. وأوامر الله كلها من أعظم علامات التقوى.. والاستهانة بها من أول علامات (اللاتقوى)..

قاطعني:

- هذه قاعدة عامة.. دعنا نتحدث في التفاصيل:

- في العقيدة.. المتقون يعظمون التوحيد ويحققونه.. ويعظمون

الشرك ويتجنبونه.. ولا يستهينون بهذه الأمور.. وفي التعامل مع اللّه.. يراقبونه في السر والعلن، فإن وقعوا في المعصية استغفروا وتابوا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ (الأعراف).. ويحبون أوامر اللّه وإن قصّروا في شيء منها.. ويحبون سنة رسول اللّه ﷺ وإن تجاوزوا شيئاً منها.. وإذا ذُكِّروا اتعظوا.

- وفي الأمور الأخرى؟ أعني التعامل مع البشر.

- ذكر اللّه جملة من تعاملاتهم.. مثل اجتناب الربا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ (البقرة)، ومثل الصدق في الحديث والفعل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ (التوبة)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾﴾ (الأحزاب)، وكذلك عدم التجاوز في رد الاعتداء: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (البقرة)، وفي التعامل مع الزوجات: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ (البقرة)، وفي الطلاق على وجه مؤكد: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾﴾ (البقرة)، وفي العدل.. حتى مع الخصوم ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ

ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ (المائدة)، ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (المائدة)، وفي أكل الحلال واجتناب الحرام ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ (المائدة)، وفي التوقف عند أوامر الله جل وعلا ورسوله ﷺ وعدم تجاوز ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١﴾﴾ (الحجرات).

المؤمن يتميز في كل شيء

- نعم من إدعى الإيمان يجب عليه أن يتميز عن غيره في العبادات والأخلاق والعقيدة والتصرفات، ولا يكون كباقي «الناس»؛ لأن الله أراد من المؤمنين أن تكون لهم معايير مختلفة عن عامة الناس.

- هذه عبارات عامة أرجو أن تبيّنها حتى تتضح الصورة.

كنت وصاحبي في جلسة عامة بين العشاءين جمعت سبعة آخرين.

- لو تتبعنا كتاب الله عز وجل عندما يذكر أخلاق الإنسان، يستثني عباده المؤمنين، كقوله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ (المعارج)، ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ (العلق) ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ (العاديات)، ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾، (العصر) وهكذا في القرآن كله، المؤمن يتميز عن عموم الناس بأن له مواقف أساسها الإيمان بالله ومما يتميز به المؤمن بوضوح حال نزول المصيبة.

كان المستفسر (بو عبدالرحمن):

- كيف يتميز المؤمن حال نزول المصيبة؟!

- لقد وصف الله عامة الناس بقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ

مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ (يونس)، وكذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (الزمر).

هذه حال عامة الناس، أما المؤمن فهو على خير مع ربه عز وجل حال الرخاء، فإذا نزلت به شدة علم أنه ابتلاء من الله وتكفير لذنوبه، أو رفع لدرجاته، فيتحصن بالصبر قلباً وقالباً، ويتذكر قول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ (البقرة)، وفزع إلى الصلاة والدعاء يسأل الله رفع المصيبة وزوال الكرب، بما ثبت عن رسول الله ﷺ كقوله ﷺ: «**ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلايا الدنيا دعا به يفرج عنه؟» فقيل له: بلى.. فقال: «دعاء ذي النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**» (السلسلة الصحيحة).

وحتى لو طالت المصيبة فإنه يعلم أن الفرج قريب من عند الله وأن ﴿مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾﴾ (الشرح) ولا يقنط من رحمة الله، ويؤمن بأن الابتلاء على قدر الإيمان، «**وأن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول**» البخاري.. ولا يسخط مهما حاول الشيطان أن يلقي في قلبه من القنوط والتذمر، ويستعين بالصلاة، وبالأخوة الصادقة، وبسيرة الصالحين.

فإذا انكشف الغم وزال البلاء، سجد شكراً لله أن أعانه بالصبر وأن كشف عنه الشدة، ويتذكر حديث النبي ﷺ: «**مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل**

شجرة الأَرز لا تهتز حتى تحصد» مسلم.. ويكون حاله بعد البلاء خيراً من حاله قبل، وإذا طالت المصيبة حتى انتهت حياته تذكر حديث النبي ﷺ: «**ليودّن أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء**» حسنه الألباني.

وأخيراً ذكر الرسول ﷺ هذه الحقائق صراحة في حديث صهيب قال: بينما رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك، فقال: «**ألا تسألونني مم أضحك؟**» قالوا: يا رسول الله مم تضحك؟ قال: «**عجبت لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير،، وإن أصابه ما يكره صبر فكان له خير، وليس كل أحد أمره خير إلا المؤمن**» مسلم.

العادات.. مهلكات

تجاورنا دون موعد في الطائرة المتجهة إلى بيروت... كانت رحلة راحة لكلينا... لسبب أجهله.. في السفر يذكر الإنسان أموراً لا يذكرها في الحضر.. تحدثنا عن أمور كثيرة:

- عندما يتقدم أحدنا في العمر تختلف أولوياته.

- بل ربما يتأصل ويزداد عنده ما كان عليه في شبابه.

- صدقت.. ففي الحديث: «**عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان: حب المال وطول العمر..**» متفق عليه.. هذا لمن نشأ على حب المال.. والحرص على الدنيا... ولكن أعني أن دوافع الحرص على الدنيا من المفترض أن تقل عند الإنسان ولاسيما أَنّ قوته تضعف وحاجته تقل.

صاحبي يتحدث بطريقة مباشرة... وصريحة:

- أخالفك الرأي.. بل أظن أن «**من شب على شيء شاب عليه**».. فأنا ما زلت أحرص على نيل منصب جديد رغم المناصب التي تقلدتها.. أشعر أنني «أدمنت» المناصب.. فأتضايق وأتململ إذا فقدت منصباً قيادياً... وأسعى بكل ما أوتيت لنيل منصب جديد.

- وماذا عن الأمور التي تنفعك في الآخرة... كصلاة الجماعة والعمرة وحفظ القرآن.. ونشر كلمة الله.

استغرب صاحبي سؤالي:

- هذه الأمور لم تكن يوما ضمن أولوياتي.. نعم أُصلي أحيانا في المسجد.. ولكن «حسب الظروف»... وكثيراً ما أفّوت الصلاة... فلا أصليها مطلقاً... في رمضان.. أصلي الصلوات الخمس معظم الوقت في البيت وربما ذهبت للتراويح في الأسبوع الأول... ثم أترك... أصلي العيد دائماً.. هكذا اعتدت منذ ثلاثين سنة.

أنا وصاحبي... في أواخر الخمسينيات... وأستغرب كيف يمكن لأحد سيبلغ الستين قريباً ألا يؤدي جميع الفرائض في المسجد ويصوم رمضان كما يحب ربنا... ويتقرب إلى الله... ويزداد من الطاعات.

شعر صاحبي بما يدور في خلدي:

- أنت تعوَّدت على أداء صلاة الجماعة في المسجد منذ صغرك وهكذا بقيت.. أنا لم أفعل... ولا أستطيع أن أفعل.

- المسألة ليست ما تعود عليه الإنسان... فهذا ليس بعذر، بل هو ما ذكره الكفار تسويغاً لترك ما جاءت به الرسل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الزخرف).

لذلك يحذرنا الله عز وجل من أن عدم الاستجابة لأوامر الله ورسوله والإعراض عنها فترة طويلة يجعل الإنسان يألَف ما هو فيه ويعرض عن الحق وإن كان يعلم أنه حق من عند الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ

لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الأنفال)... في تفسير ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، فالذي يرفض الاستجابة لنداء الله ورسوله ﷺ لما يحييه «القرآن أو الأوامر الشرعية عموماً»... ويستمر على ذلك ويصرّ عليه فإنه يبلغ مرحلة.. يعلم أن الدين حق.. ولكن لا يتبعه ويعلم أن الصلاة واجبة.. ولكن لا يؤديها.. ويعرف سبيل النجاة من العذاب يوم القيامة... ولكن لا يتبعه.. نسأل الله أن يحفظنا من ذلك.

لم يتأثر صاحبي:

- كلامك صحيح.. ولكن كما قلت... تعودنا على ذلك ولا أظن أنني أستطيع تغييره.

- أظن أنك تستطيع تغيير ذلك إذا أردت... ما رأيك؟

- إن شاء الله.

قالها غير مبالٍ.

رغبة المؤمنين ورهبتهم

بعد العصر وقت ممتع بالنسبة لي.. أقضيه في القراءة أو الكتابة أو الحوار.. صاحَبَني (بو مساعد) بعد العصر إلى المكتب.. كانت مستلزمات الضيافة جاهزة.. خيرّته بين الشاي الأخضر والأحمر والأعشاب الصينية.. اختار الأخيرة.

- قرأت في أحد مقالاتك أن آيات العذاب في كتاب الله (للمجرمين والظالمين والكافرين والفاسقين... إلخ) وليست للمؤمنين.

- نعم.. ولكن المؤمنين مشفقون من عذاب الله.. ويرهبون أهوال القيامة.. ويستعيذون من عذاب القبر.. ولا يأمَنون العذاب مع ما كانوا عليه من الصلاح.. ومع عقيدتهم الراسخة برحمة الله وفضله.. اسمع قول الله تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾ (الشورى).. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (المؤمنون)، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون)، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ (المعارج).. ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الأنبياء)..

بل الملائكة في وَجَل وخوف وإشفاق من جلال الله وعظمته، وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يقول الله في وصفهم:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأنبياء).

أخذ صاحبي رشفة من الشاي الصيني.. لم يستسغه.. ولكن ابتلعه على مضض.. وأرجع الكوب.. بعد حديث قصير عن الشاي رجعنا إلى موضوعنا:

- ممَّ يخاف المؤمن؟

- يخاف من تقصيره في حق الله عز وجل.. يخاف من سوء الخاتمة.. يخاف من الافتتان والضلال بعد الهدى.. يخاف من عذاب القبر.. يخاف من عذاب النار.. ولذلك يعمل الصالحات ويستعيذ بالله من هذه الأمور.. وبالطبع المؤمن لا يشك أن رحمة الله واسعة وأنه لا سبيل للنجاة إلا برحمة الله.. وأن فضل الله عظيم.. وأن رحمته سبقت غضبه.. هذه الأمور كلها تجعل المؤمن يجتهد في الطاعات.. ويجتنب السيئات.. ويكثر من المكفرات.. ويلجأ إلى الله بالدعوات الصادقة.. ويعلم يقيناً أن هذا هو سبيل النجاة.

- هل هذا معنى قولهم: إن المؤمن يطير بجناحي الخوف والرجاء؟

- نعم.. الحياة كلها كذلك.. وربما يغلب الخوف حال الصحة والعافية.. ويغلب الرجاء حال اقتراب الأجل والإقبال على الآخرة.. ولكن ينبغي ألا نخوّف المؤمنين بآيات العذاب التي توعد الله بها الكافرين.. كقوله عز وجل: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ

ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ (الحاقة) أو قوله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ (المعارج).. نعم المؤمن يخاف ويشفق من عذاب الله لأنه يؤمن به يقيناً.. والكافر يجحد ويكذب بعذاب الله.. فلا خوف عنده.. حتى يراه يوم القيامة رأي العين.. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ (الطور).. وقال سبحانه: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ (الرحمن).. وقال عز وجل عن المجرمين: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ (المدثر)، ووصف سبحانه حالهم في الدنيا بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الواقعة).

فمن آمن بالبعث بعد الموت خاف.. خوفاً يدفعه للعمل الصالح.. وهذا هو الخوف المحمود.. ومن أنكر الآخرة تمتع في دنياه.. وأَمِن.. ثم يوم القيامة رأى ما كان ينكره رأي العين، نسأل الله العافية!

اتباع الهوى

- أورد الألباني في السلسلة الصحيحة عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث مهلكات وثلاث منجيات وثلاث كفارات وثلاث درجات، فأما المهلكات: فشح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه، وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا، وأما الكفارات: فإسباغ الوضوء في السبرات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ونقل الأقدام إلى الجُمُعات، وأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام**» حسن لغيره.

تذكرت هذا الحديث وأنا أستمع إلى بعض الرموز الإسلامية يسوّغون خروجهم في المسيرات، ومشاركتهم في التظاهرات، وصراخهم في الندوات.

- وما علاقة الحديث بهؤلاء؟

- هؤلاء اتبعوا أهواءهم وأعجبتهم أنفسهم، وذلك لأن اتباع الهوى لا يعني الانغماس في المعاصي والفواحش فحسب، وإنما يشمل كل تصرف يقع من الإنسان مخالفاً شرع الله.

كنت وصاحبي في نقاش حول مواقف بعض أهل الدين من المشاركة في المظاهرات والمسيرات والاعتصامات.

- في تفسير قول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ

عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ (الجاثية).

قاطعني صاحبي:

- أظنك تقسو بالحكم على هـؤلاء، فهم أهل صلاة وصلاح ومن قيادات الدعوة الإسلامية، ولا أظن أنك تستطيع أن تحتج بهذه الآية عليهم.

- دعني أذكر لك تفسير الآية، وأنا هنا لا أحكم على أحد، وإنما أذكر أقوال العلماء: «إن الواجب الذي يلزم العمل به هو أن يكون جميع أفعال المكلف مطابقة لما أمره به معبوده جل وعلا، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه، فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالقه إلى هواه». (أضواء البيان)، وإذا كان جزء من أفعاله تابعا لما يهواه فقد صرف جزءاً مما يستحقه خالقه إلى هواه.

وهؤلاء القوم: «لم يسألوا أهل الذكر وليسوا هم بأهلٍ للاجتهاد، فماذا بقي عندهم عدا اتباع الهوى»، وفي تفسير السعدي في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾، أي في جميع شرائع الدين ولا يتركوا منها شيئاً وألا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه: إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعاً للدين.

وفي ظلال القرآن: «والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت وتتبع الهوى المتقلب، وحين

تتعبد هواها وتخضع له وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها وتقيمه إلهاً قاهراً لها مستولياً عليها تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول».

ولئن كان اتباع الهوى في ارتكاب المعصية الفردية تنطبق عليه هذه الآية، فإن اتباع الهوى في الأمر العام أشد وأخطر، وذلك لأن نتائج هذا العمل الأخير تتعدى الفرد إلى المجتمع ككل.

- ما زلت غير مقتنع بوصف المعارضين أو الأغلبية المقاطعة للانتخابات بأن أحدهم: ﴿**اتخذ إلهه هواه**﴾.

- أنا لم أقل إنه اتخذ إلهه هواه، ولكن أقول: إنه اتبع هواه، وذلك لأنه لم يرجع إلى أقوال العلماء الربانيين، وهو ليس أهلاً للاجتهاد في الأمور التي تهم الأمة، ثم اسمع حديث النبي ﷺ الذي ذكرت لك آنفاً من المهلكات: «**هوى متبع وإعجاب المرء بنفسه**» وهؤلاء لا يخرجون عن أحد هذين الوصفين بتصرفهم هذا.

الاغترار بالعمل

«إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة».

- هذا الحديث ورد في (صحيح مسلم) باب: تغليظ حرمة قتل الإنسان نفسه.. وفيه أن الرسول ﷺ كان في قتال مع المشركين، فلما مال كل فريق عن الآخر.. كان رجل في صفوف المسلمين لا يترك شاردة إلا تبعها.. حتى قال المسلمون: ما أجزأ أحد مِنَّا ما أجزأ فلان.. فقال ﷺ: «**هو من أهل النار**».

قاطعني صاحبي:

- نعم تذكرت الحديث.. عندما راقبه أحد الصحابة، فجرح هذا الرجل جرحاً شديداً فاستعجل منيته.. فنصب سيفه وجعل ذؤابته بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه.

- أحسنت.. وفي الحديث دروس عظيمة ربما لا يفهمها كثير من الناس، وأولها: ألاَّ يغتر المرء بعمله، ولا بعمل غيره، فلا يحكم لأحد بالجنة، ولا لنفسه، بسبب العمل الصالح.. فلا يزكي نفسه ولا يزكي غيره، وكذلك لا يقنط من رحمة الله إن كان مسرفاً على نفسه، ولا يقنّط غيره، فهذا الرجل الذي تميز في ميدان المعركة وآذى الكفار، أتى عملاً ظن معه الصحابة أنه أبلى بلاء حسناً تميز به عنهم، فأعجبوا بعمله، ولكن خاتمته أنه لم يصبر على بلاء الله، فقتل نفسه فكان من أهل النار.

قاطعني: وهل من يقتل نفسه يخلّد في النار؟

- إن كان مستحلاً لهذا الذنب نعم يخلد خلوداً دائما في النار.. أما إن مات على التوحيد.. بمعنى أنه لم ينقض شهادة: (لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه)، فإنه يموت عاصياً، والعصاة تحت مشيئة اللّه، يعذبهم أو يتوب عليهم.

- أظن أن هناك رواية أن قاتل نفسه خالد مخلد في النار أبداً.. أليس كذلك؟!

- نعم.. وهو في (صحيح مسلم).. من تردَى من جبل.. ومن احتسى سُمًّا.. ومن توجَّأ بطنه بحديدة.. هؤلاء الذين ذكرهم الرسول ﷺ كأمثلة في الحديث.. ولكن هذا الخلود المؤكد ليس كخلود الكفار.. بل هو مكث طويل لمن مات على التوحيد.. فهو يستحق هذه العقوبة إن لم يغفر اللّه له.. وهو سبحانه يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك.. لمن يشاء سبحانه وتعالى.

ولنرجع إلى حديثنا الذي بدأنا به.. بعض من يسيء فهم الحديث يظن أنه يسعه أن يعيش في المعاصي.. ويكون من أهل الجنة.. دون عمل.. يستشهد بهذا الحديث.. وهذا خطأ دون شك فالمرء يعمل الصالحات ويكثر من الطاعات ويعلم أنها شرط لدخول الجنة: ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (الأعراف).. ولكنها ليست بالمكافأة.. بل برحمة اللّه يدخل المسلم الجنة.. وإن كان لا بد من العمل.. وكذلك النار دار من عصى اللّه.. بعدل اللّه.. فإن تفضل اللّه عليه وغفر له لأنه لم يشرك باللّه.. خرج من النار بإحسان اللّه وفضله عليه.

أنا خير منه!

بعض الناس يرى أنه خير من غيره من البشر بسبب شرف عائلته أو رفعة قبيلته أو كثرة ماله أو علوّ منصبه أو تميز شهادته العلمية..

تُصادف من هؤلاء في العمل.. وفي المسجد.. وفي الحي.. يجمعهم قول واحد يرددونه في أنفسهم: «**أنا خير منه**».

كنت وصاحبي نتمشى بعد صلاة العشاء بعد أن أديناها جماعة في مسجد قريب من البحر.

- عندما أمر الله إبليس أن يسجد لآدم.. رفض.. (استكباراً).. وبالطبع لا يقر أي متكبر باستكباره فأراد أن يسوّغ الرفض بعلة.. فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف).

- كلما أتذكر هذا الموقف أشعر أن إبليس كان في قمة الغباء.. أضحكني تعبير صاحبي.. تابع حديثه.

- نعم.. والله لا أشك أنه كان في قمة الغباء.. لقد كان في الملكوت مع الملائكة ويعرف أن الله الخالق الرازق المدبر.. قاطعته.

- هذا هو الكفر.. مع العلم.. والعياذ بالله.. عندما يتقدم هوى النفس على العلم.. وعندما لا يورث العلم إيماناً في القلب وخضوعاً في الجوارح.. لا ينفع صاحبه شيئا.

تابعت.

- إبليس.. قَدّم القياس على النص.. وهذا يفسد القياس.. وفي الواقع

ما هذا إلا تسويغ للمعصية.. هو لم يُرِد أن يسجد.. فلم يجد تسويغاً إلا أنه خير من آدم.. وتمادى في معصيته.. وانظر إلى الفرق بين معصية آدم.. ومعصية إبليس.. عندما نبه الله آدم إلى معصيته قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأعراف)، ولم يكن يعرف ما يقول ولكنه أراد الرجوع عن المعصية.. فتلقى هذه الكلمات من ربه.. فقالها صادقاً.. وتاب الله عليه.. أما إبليس فتمادى في المعصية رغم أن الله سلبه كبرياءه وأذله: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّـرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ (الأعراف)، وقال عز وجل: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ (الأعراف).

أخذت وصاحبي مجلساً على كرسي قبالة البحر.. تابعت.

– وشعر إبليس بالذل والهوان والصغار.. ولكنه أصر على معصيته، قال: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾، وذلك لأنه على يقين أن الله قادر على أن يبقيه إلى ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.. لأنه يعرف قدرة الله عز وجل ولماذا طلب الإنظار؟ حتى يسوّغ لنفسه أن سبب معصيته هو هذا المخلوق (آدم).. ولا يريد أن يقرر أن سبب معصيته هو (تكبره) عن أمر الله.. فطلب الإمهال حتى ينتقم من ذرية آدم.. في صراع أبدي إلى يوم القيامة.. ومع ذلك يعلم أنه لا يملك أن يضل أحداً إلا إذا خلّى الله بينه وبين بني آدم.. واستجاب له من يريد أن يضله.. اسمع قول الله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص)، وقوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ

فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ (إبراهيم).

فتركه الله.. ابتلاء لبني آدم مع أنه من اعتصم بالله فإن إبليس وجميع جنده لا يستطيع أن يضله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (الحجر).

فالذي يَضِلّ عن سبيل الله.. ويعتذر بأن الشيطان أغواه عذره غير مقبول.. لأن الشيطان في ساعة الحقيقة.. يقول: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾.. ولو أراد هذا العبد الرجوع إلى الله بصدق لما كان للشيطان عليه سلطان.. ولكنه هو الذي لم يرد.. فاتخذ الشيطانَ عذراً.. كما أن الشيطان عندما لم يرد أن يسجد.. قال: «**أنا خير منه**».

الضلع أعوج

كلما تابعت البث المباشر للحرم في النصف الثاني من شوال حدثتُ نفسي بالذهاب للعمرة.. رغم كثرة المشاغل في بداية العام الدراسي.

هاتفت صاحبي.. أشار علي بالانتظار أسبوعين لارتباطه بأمور خارج البلاد.. عرضت الأمر على صاحبتي.. تعذرت بإنشغالها بالتجهيز لولادة البنت.

- أحدنا يجب أن يزور المقبرة والمستشفى قبل أن يضع أولوياته في الحياة.

كنت أحاورها ونحن نحتسي شاي العصر.

- إذن لا نعمل لأجل دنيانا.

- بل نعمل ما يجب دون أن ننشغل عن آخرتنا التي قد ننتقل إليها في أية لحظة..

ثم تعمدتُ تغيير الموضوع:

- في خطبة الجمعة.. تناول الشيخ حديث «الضلع الأعوج» بطريقة جميلة.

- إذا كنت ستهاجمني.. فلا تكمل.

- بل الشرح لصالح النساء، اسمعي ما قال.. أولا الحديث متفق عليه.. وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم**

الآخر فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج؛ فاستوصوا بالنساء خيرا».. تناول هذا الحديث بأن المرأة خلقت وفيها اعوجاج.. في لسانها.. أو تفكيرها.. فلا ينبغي للرجل أن يصرّ على أن تستقيم له زوجته بل يجب عليه أن يقبل «الاعوجاج».. لأنها مخلوقة هكذا.. فالواجب عليه أن يصبر عليها.. ويتنازل حتى يسايرها وإذا أراد أن يبين لها خطأ تصرفها أو كلامها فبطريقة لينة حكيمة.. حتى لو ردت عليه.. وأخطأت في حقه.. وهي غاضبة فيجب عليه أن يقبل ذلك منها ويصبر عليه كما في قوله تعالى في وصف جانب آخر من طبيعة المرأة: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨﴾ (الزخرف).. هكذا خلقها الله.. فلا ينبغي لرجل أن يلوم زوجته على اعوجاجها في الكلام أو التصرف ولاسيما في حالة الغضب والخصومة بل يصبر.. وإلا فإنه سيطلقها.. ويحقق للشيطان أعظم ما يرضيه!!

قاطعتني:

- وهل أعظم ما يُرضي إبليس الطلاق؟

- اسمعي حديث النبي ﷺ من صحيح مسلم: «**إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة (لبني آدم)... يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا (ويذكر ذنوباً مثل: ما زلت بفلان حتى شرب الخمر.. ما زلت بفلان حتى عق والديه.. ما زلت بفلان حتى زنى..) فيقول: ما صنعت شيئا، قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت..**

أنت.. أنت.. قال الأعمش: أراه قال: فيلتزمه».. أي يضمه ويعانقه لعظم مكانته عنده.

- أعوذ بالله من إبليس.. وليت الرجال يتعظون ويمتنعون عن التلفظ بالطلاق.

- صدقتِ.. ليتهم يصبرون ويقتدون بهدي النبي ﷺ مع نسائهم، والآن هل ترضين بصفة «ضلع أعوج»؟

- نعم.. إن كان ذلك سيجعل الرجال يصبرون على نسائهم ويتحملون أذاهن باللسان وسوء التصرف..

- لا.. وهناك ما هو أجمل من ذلك.

- هاتِ.. إن كان من هذا القبيل.

- تعرفين حديث «أكثر أهل النار النساء»؟

- أعوذ بالله من النار.. نعم أعرفه.

- الحديث صحيح متفق عليه.. والشاهد منه «**قال: ويكفرن العشير يكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كلّه ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خير قط**».. ففي هذا الحديث بيان لطبيعة أخرى في النساء خلقهن الله عليها.. ويجب على الرجال أن يقبلوا هذا الطبع ويصبر الزوج عليه في زوجته.. وهو.. إنكار المعروف... أي إذا إنكرت إحداكن إحسان أحدنا لها لمجرد خطأ واحد يجب علينا القبول والصبر، لا الانزعاج والغضب لإنكار إحداكن إحساننا الدهر كله.. وهكذا خلقكن الله.

- هذه واللّه جميلة.

- واسمعي أيضا واحدة أخرى.. قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يوصيكم بالنساء خيراً، إن الله يوصيكم بالنساء خيراً فإنهن أمهاتكم وبناتكم وخالاتكم، إن الرجل من أهل الكتاب يتزوج المرأة وما يعلق يداها الخيط فما يرغب واحد منهما عن صاحبه حتى يموتا هرما**» (السلسلة الصحيحة).

- الله أكبر.. أين رجالنا من هذا الحديث؟

- هكذا هو هدي النبي ﷺ في الوصية بالنساء.. بالصبر عليهن والإحسان إليهن ومعاملتهن باللطف والرحمة.. وكلنا يعرف حديث النبي ﷺ: «**لا يفرَك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر، أو قال: غيره**» (صحيح مسلم).. وهكذا هي شريعة الله السمحة.. التي أعطت القوامة للرجل.. فالطلاق بيده وكذلك الإنفاق والمسؤولية.. وأوصاه بكل ما فات حتى يحفظ هذه الآية التي أخبر الله عنها بقوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم).

قاطعتني:

- ما معنى.. «ما يعلق يداها الخيط».. في حديث أهل الكتاب؟!

- أي لا تملك شيئا.. أو صغيرة لا تفقه شيئا.. وفي الشرح عن العلاء بن سفيان الغساني: «لقد بلغني أن من الفواحش التي حرم الله مما بطن، مما لم يتبين ذكرها في القرآن، أن يتزوج الرجل المرأة، فإذا تقادم صحبتها وطال عهدها ونفضت ما في بطنها طلقها من غير ريبة.

بعض الأيام... خير من بعض

أخرج ورقة من جيب ثوبه العلوي... ليقرأ لي حديثاً سألني عن ثبوته:

- عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «**خلق الله البرية يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق وآخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل**».

- لقد كنت أبحث قبل يومين عن فضائل الجمعة وكان ضمن ما اطلعت عليه هذا الحديث.. وهو في صحيح مسلم.. فهو من الأحاديث الصحيحة.

- عندما اطلعت على الحديث دخل في نفسي شيء .

- أي شيء؟!

- لماذا فضل الله يوم الأربعاء على الثلاثاء فخلق النور في الأول والشر في الثاني؟

- هذا ليس بتفضيل يوم على يوم... بل تفضيل الأيام يكون بذكر فضيلة اليوم لا بما خلق فيه... مثلاً... فضل الله يوم الجمعة على سائر الأيام وجاء في ذلك أحاديث تبين فضل الجمعة... وكذلك فضل يوم الاثنين والخميس «**فيهما ترفع الأعمال إلى الله..**» صحيح الجامع..

وفضلَ يوم عرفة أيا كان من أيام الأسبوع... لِعَظَمة العبادة التي تقع فيه وفضلَ يوم عاشوراء (العاشر من محرم)... وهكذا يكون تفضيل الأيام بما يكون فيها من عبادات... وطاعات... وهنا أشير إلى أن النووي في شرح مسلم بيّن أن «خُلق المكروه يوم الثلاثاء»، أي: للمجهول بمعنى.. بضم الخاء.. وكسر الام... قياساً على قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ (الجن) .

- إذاً لا ينبغي أن يتشاءم أحد من يوم الثلاثاء مثلاً؟

- بالطبع... لا تشاؤم في الإسلام على الإطلاق... ونهى النبي ﷺ عن الطّيرة... (التشاؤم)... (متفق عليه) .

- وأين جاء ذكر خلق الأرض في القرآن؟

في سورة فصلت: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ (فصلت)، وهنا يجب أن نفصل بعض الشيء أن الأرض خلقت في أربعة أيام... بما في ذلك ما بث فيها من أقوات ولوازم المعيشة الأخرى، والسموات خلقت في يومين... فهذا الخلق كله أخذ ستة أيام، ثم استوى سبحانه وتعالى على العرش... وعلق الألباني - رحمه

الله - على حديث مسلم الذي أوردناه في البداية بقوله: «أن هذه الأيام ليست تلك... بل أيام مختلفة»، فالأيام المذكورة في الحديث جزء من الأيام الأربعة المذكورة في الآية، والمخلوقات التي وردت في الحديث جزء من المخلوقات التي بثها الله في الأرض وذكرها في الآية إجمالاً.

كان صاحبي يستمع باهتمام كأنما يتعلم شيئاً جديداً .

- وهناك حديث آخر عن بعث الأيام يوم القيامة... عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تحشر الأيام على هيئتها، وتحشر الجمعة زهراء منيرة أهلها يحفون بها كالعروس تُهدى إلى خدرها تضيء لهم يمشون في ضوئها، ألوانهم كالثلج بياضاً، وريحهم كالمسك، يخوضون في جبال الكافور، ينظر إليهم الثقلان لا يطرفون تعجباً حتى يدخلون الجنة، لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون**» صحيح الترغيب والترهيب .

الفلسفة = الشك

جمعتني رحلة علمية بزميل في الجامعة من قسم الفلسفة، قدر الله أن نتجاور على متن الطائرة في رحلة نهارية تستغرق ثلاث ساعات، قررت أن أستمع لرأيه، وذلك لأني قرأت كثيراً عن تأييد الفلسفة ورفضها، ولكني لم أجتمع يوماً بمتخصص في الفلسفة.

بداية شعرت أنه لا يريد أن يفتح الحوار معي لمعرفته بتوجهاتي الدينية، ولكن بعد حين بدأ يتحدث:

- لماذا يأخذ الإنسان كل ما تَربَّى عليه بيقين؟! لماذا لا يتساءل حتى يصل هو بنفسه إلى قناعاته الذاتية؟!

نظر إلي، أومأت برأسي أن أجب أنت، أنا مجرد مستمع.

تابَع: إن التفكير حق لكل إنسان، ولا ينبغي لأي أحد عاقل أن يتنازل عن حقه في التفكير والبحث والوصول إلى قناعات من خلال تساؤلاته، ينبغي أن يضع كل شيء موضع تساؤل، ويفكر، ويبحث حتى يصل إلى الإجابات، وإذا لم يصل إلى إجابات يبقى الموضوع في خانة الشك.

- هل لك أن تبين لي هذا الأمر بأمثلة؟!

- مثلاً: منذ أتينا إلى الدنيا ونحن نرى آباءنا ومجتمعنا يعملون ذات الشيء، الكل يصوم في رمضان، والكل يفطر يوم العيد، والكل يتحدث عن الدين أنه فضيلة، فاجتناب الخمر فضيلة، وتعاطيها رذيلة، ولبس الحجاب فضيلة، والسفور رذيلة، والذهاب لمكة فضيلة وهكذا.

نكرر كلمات وأفكار وتصرفات دون تفكير ولا مراجعة.

استأذنته أن يشرح الموضوع أكثر:

- هل لك أن تبين لي تفصيلاً واحدة من هذه المواضيع؟!

- مثلا: الحجاب لماذا هو فضيلة؟! الفضيلة هي أن تكون المرأة محترمة في تفكيرها ومنطقها وتصرفاتها، لا بغطاء رأسها.

- ولكن أظن أن من يقول: إن الحجاب فضيلة، يقول ذلك من باب أن هذه المرأة اتبعت أمر الله عز وجل.

- وهل الله يأمرنا بأمور غير منطقية، ألا ترى كم من الرذيلة تقع من نساء محجبات.

قاطعته: - ليكن نقاشنا علمياً، لا نريد أن نستشهد دون أرقام وإحصاءات، ولكن لنفرض أن هذا أمر من الله.

- كلا، إن الله لم يأمر بالحجاب.

- وإذا كان قد أمر هل من الفضيلة أن نتبع أمره؟!

- حتى لو أمر الله بالحجاب، أو بأي أمر آخر يجب أن نفكر، وما نتوصل إليه ونقتنع به نعمله.

- دعنا من أوامر الله عز وجل، لنتحدث عن الأخبار التي يخبرنا الله بها.

- ماذا تعني؟!

- أعني أن اللّه يخبرنا أنه خلق السموات والأرض وخلق الملائكة وخلق الجن وأنه ستكون حياة بعد الموت، وسيكون يوم للجزاء، كل هذه الأخبار وغيرها كيف نتعامل معها؟!

تردد، شعرت أنه غير مرتاح للسؤال.

كنت قد بذلت جهداً يسيراً من باب حبي للمعرفة، واطلعت على بعض ما هو مكتوب في كتب الفلسفة... فتابعت حديثي...

- هناك فلسفة على مستوى العالم تجعل كل شيء موضع شك، حتى وجود اللّه عز وجل، وتعلم طبعاَ أن كلمة (فلسفة) أصلها يوناني وتعني: (المحب للحكمة) أما علماء المسلمين فليس لهم منهج واحد، وبرأيي الشخصي لا يمكن أن تكون هناك فلسفة إسلامية؛ لأن أساس الفلسفة الذي هو (الشك والتساؤل والبحث) يتناقض مع مفهوم الإسلام الذي هو (الاستسلام والقبول والإذعان).

- ولكن ابن رشد الذي ولد في قرطبة عام ١١٢٦م، وتوفي ١١٩٨ يعد من أهم فلاسفة الإسلام، ومن أقواله: «الحسن ما حسنه العقل، والقبيح ما قبحه العقل» فهم يضعون للعقل مكانة أساسية في حياة الفرد، وهذا هو المنهج العالمي للفلاسفة منذ أفلاطون وأرسطو.

- ولكن تعلم ما مشكلتي مع الفلسفة؟

- ما هي؟!

- مشكلة بسيطة، مثلاً هل تستطيع أن تستخدم عينيك لرؤية ما وراء جدار إسمنتي؟ أم هل تستطيع أن تسمع بأذنيك ذبذبات دون (٤)

أو أعلى من (٢٠) كيلو هرتز، لا تستطيع، وهكذا العقل له حدود، وإذا استعمله الإنسان خارج هذه الحدود يتخبط، قد يصيب وقد يخطئ.

سأل متحدياً:

- وكيف نعرف حدود العقل؟!

- نستطيع أن نحدد مناطق لا يستطيع العقل أن يعمل فيها، مثل الغيبيات: الموت، وما بعد الموت، الملائكة وغيرها من الأمور الغيبية، ونستطيع أن نحدد مناطق خُلق العقل ليعمل فيها، مثل النظر في دقة خلق السموات والأرض، وكيف وجدت بهذا النظام، وبالمناسبة كنت أستمع إلى برنامج علمي في إذاعة أجنبية بتاريخ ٢٠١٢/١٢/١٣؛ حيث توصل العلماء إلى أن العالم كله قبل وجود النجوم وأي شيء كان في ظلمة دامسة، وهذا مذكور عندنا في أحاديث صحيحة، والشاهد أن العقل يستطيع إثبات وجود الله، ويستطيع إثبات نبوة محمد ﷺ؛ فإذا ثبتت هاتان القضيتان يجب أن نتقبل ما ينتج عنهما، أي طاعة الله واتباع رسوله ﷺ، وإلا فقد ناقضنا القضية الأولى.

المفكرون هم الفلاسفة؟

بعض الناس يحمل لقب (مفكر إسلامي).. وحيث أن هذا اللقب لا يتطلب شهادة معينة.. ولا يمكن الحصول عليه وفق برنامج أكاديمي محدد، اجتهدت أن أستجمع المواصفات والمؤهلات اللازمة لنيل اللقب لا رغبةً فيه.. بل لمحاولة فهم من يحمله!!!

تابعت أحدهم في مقابلة متلفزة:

- الفقه.. لا يغيّر الأمة.. العقيدة.. لا تغيّر الأمة.. الفكر هو الذي يغير الأمة ويستنهضها.

- هل يمكن أن نصفك فنقول «مفتي»؟!

- كلا.. وإن كنت لا أعجز عن الإفتاء.

تابعت (مفكراً) آخر ضمن كتاباته.. وفي إحدى المقابلات المنشورة:

- كتبت في العقيدة.. وفي الدعوة.. وفي السيرة.. منذ أكثر من ثلاثين سنة.

- ما الذي تدعو له؟

- أدعو إلى نظرة جديدة للدين.. طريقة جديدة للتفكير في الشريعة.. منهج جديد لتطبيق السنة.

- من الذين تتلمذت على أيديهم من الشيوخ؟!

- كثير من المشايخ جلست معهم وسمعت منهم.. ولا أريد أن أحدد اسماً أو أسماء.

وأنا أعرف هذا وذاك.. كلاهما تخرج من جامعتين أمريكتين، الأول مهندس والآخر إداري، وأتما دراسة الدكتوراة في إدارة التنمية والإدارة البشرية.. والعلوم الاجتماعية.. بمعنى آخر.. لم يدرسا الشريعة.. ولم يحفظا كتاب اللّه.. ولم يقرءا في أي تخصص من تخصصات الدراسات الإسلامية قراءة منهجية.. ومع ذلك كتب أحدهما في كل شيء.. ونشر كتباً في جميع فنون الدراسات الإسلامية!!!

وفي نهاية المطاف وجدت أن أقرب الفئات للمفكرين.. الفلاسفة.. أو بطريقة أدق.. المفكرون اليوم يحاكون فلاسفة الأمس.. وكلنا يعلم أن أساطين الفلسفة.. المسلمين.. رجعوا عن فلسفتهم بعد أن أفنوا حياتهم فيها.

ويعلم كل عاقل أن لكل علم طريقة ومنهجاً لاكتسابه.. وحتى تكون من أهل الاختصاص في أي فرع من فروع العلم يجب أن تتبع منهجاً علمياً أقره أهل هذا الاختصاص حتى تكون من أهله.. وأن الكتابة في العقيدة.. بعد الاطلاع على بعض كتب العقيدة.. لا تؤهلك أن تقيّم مكانتها في دين اللّه.. وكذلك في السيرة أو الفقه.. أو غير ذلك من التخصصات الشرعية.

أول خطوة لنيل العلم الشرعي.. هي الإخلاص وتقوى اللّه.. والملاحظ في هؤلاء المفكرين على كثرة حفظهم لأقوال أمثالهم.. أنهم لا يحفظون إلا شيئاً يسيراً من كتاب اللّه.. أما أحاديث الرسول ﷺ فهم لا يحفظون إلا بعض المتون التي يحتاجونها بين فترة وأخرى.

عندما «يفكر» المرء.. بموضوعية.. وتجرد.. ليعرف السبيل الأمثل للنهوض بالأمة.. لن يختلف اثنان أن منهج الرسول ﷺ هو السبيل الأمثل.. والكل يدَّعي أنه يسلك منهج النبي ﷺ .

ولكن.. ألا يلزم من يريد أن ينهض بالأمة أن يكون حافظاً لكتاب اللّه.. عالماً بسنة النبي ﷺ .. متبعاً لهدي النبي ﷺ في مظهره ومخبره.. عالماً بأصول الفقه والأحكام الفقهية؟! نعم يكفى أن يكون متخصصاً بأحد هذه التخصصات مطلعاً على غيرها.. ولكن أن يأتي بفكر لا أساس له من كتاب اللّه.. ولا سنة النبي ﷺ ثم يقول إنه يريد أن يستنهض الأمة.. فإنه بهذا يفتن نفسه.. ويفتن من يستمع إليه أو يقرأ له.. وهذه فتنة عظيمة يصعب على كثير من «المفكرين» الاستفاقة منها.

خلاصة الأمر.. إن كان المفكرون اليوم هم فلاسفة الأمس.. فإننا نحذر المسلمين من كل ما يطرحونه.. لأن منهج الفلاسفة لا يؤدي إلى الحق.. وإن كان المفكرون اليوم شيئاً جديداً لم يسبقهم إليه أحد.. فليس المسلمون بحاجة إليهم. فقد كفانا منهج المصلحين عن أفكارهم وأطروحاتهم.

الشك.. كفر

- تعال نتتبع الآيات التي ذكر الله فيها كلمة شك.. أولها في سورة النساء (١٥٧): ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾.

قاطعني صاحبي.. سبحان الله.. على الرغم من أن القضية لا تعدو (ظناً وشكاً) إلا أن النصارى جعلوه أساس عقيدتهم.. هذا هو الفرق بيننا وبينهم أن عقيدتنا لا تداخلها ذرة شك، كما قال ﷺ: «**قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**» السلسة الصحيحة.

- صدقت لذلك ينبغي على المسلم ألا يترك قضية، ولاسيما في العقيدة يراوده فيها شك، بل يكون على يقين في عقيدته وعبادته ومعاملاته، فقد ذم الله الشك وجعله سمة مَنْ كفرَ مِنَ الأمم السابقة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم)، بعد أن أقام الرسل الحجج على أقوامهم ولم يجد هؤلاء سبيلاً لإنكار الرسالات قالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾، وعكس الشك اليقين، المؤمن على يقين، والكافر في شك.

- وما القضايا التي لا ينبغي أن يشك فيها المؤمن؟!

- كل ما ثبت في كتاب الله، وسنة الرسول ﷺ، القبر، ونعيمه وعذابه، والبعث والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار، وكتاب الأعمال، والملائكة والجن، هذه قضايا لا ينبغي لأحد أن يشك فيها بكل ما ورد فيها من تفصيل صحيح، كثير من الكفار يشكون بالبعث بعد الموت، حتى في أيامنا هذه تسأل أحدهم في بلاد الغرب عن المصير بعد الموت، فيجيب: «أنا لست متأكدا».

أما المؤمن فعلى يقين بكل التفاصيل الصحيحة لما يصاحب خروج الروح، وما يكون بعده حتى قيام الساعة، وحتى المستقر النهائي: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ (الشورى).

- وماذا عن الشك الذي يراود الإنسان في وضوئه أو صلاته أو صيامه؟!

- هناك قاعدة عامة في ذلك: «الشك لا يزيل اليقين»، فإذا كان المرء على يقين أنه توضأ، فإن وضوءه لا ينتقض لمجرد أنه شك، بل لابد أن يكون على يقين أن الوضوء انتقض، وكذلك في الصلاة إذا كان على يقين أنه أكملها؛ فإنه لا يتجاوب مع الشك «الوسواس» الذي يأتيه «اليقين لا يزول إلا باليقين».

وعموماً المؤمن على يقين في أموره كلها، عقيدته، عباداته، معاملاته، وبذلك يمتلئ قلبه طمأنينة وثقة بالله.

اليقين.. والشك

بحثت في كتاب الله عن كلمة «شك»... وجدت أنها وردت في خمسة عشر موضعاً.. كقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ (إبراهيم).

واخترت هذه الآية لأنها تبين موقف قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، فجميع هذه الأمم كفروا.. بسبب «شكهم» في دعوات رسلهم.. أغلبهم شك في الآخرة والمعاد: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (النمل).. و(الشك) هو ما يحاول إبليس زرعه في قلب ابن آدم.. «ومن شك كفر».

قاطعني:

- ماذا تعني «من شك كفر»؟

- من لم يكن على يقين راسخ.. وانتابه أدنى شك في أركان الإيمان، يكفر.. فمن شك في وجود الملائكة.. أو ببعثة النبي ﷺ.. أو بأن القيامة آتية لا ريب فيها.. يكفر كفراً أكبر.. يخلّده في نار جهنم.

كنت وصاحبي بانتظار بدء ندوة حول «السياسة الشرعية» نظمتها كلية الشريعة.. اتخذنا مقعدين في المؤخرة قريباً من المخرج الخلفي لارتباطنا بموعد آخر خشية أن تطول الندوة.

- وماذا عن أولئك الذين يعطون لأنفسهم «مساحة» لنقاش هذه القضايا؟

- ليس هناك «مساحة» للتفكير في أركان الإيمان؛ لذلك أخبرنا الرسول ﷺ عن واحدة من هذه الحالات.. ففي الحديث المتفق عليه.. قال رسول الله ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟.. حتى يقول: من خلق ربك؟! فإذا بلغه فليستعذ بالله ولِيَنْتَهِ**»، وفي رواية أنس: قال رسول الله ﷺ: «**لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل: آمنت بالله**» رواه مسلم.. ففي هذا الحديث أمرٌ من رسول الله ﷺ للمؤمنين بدفع هذه الأفكار وردها دون استدلال ولا منطق ولا نقاش.. وإنما بالرجوع إلى «الإيمان بالله».. وبيّن في رواية أخرى: «**فليقل: آمنت بالله ورسوله.. فإن ذلك يذهب عنه**».. هذا هو العلاج.. وذلك أن المؤمن يجب أن يكون على يقين بقضايا الإيمان والغيبيات.. بالإيمان بكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ الصحيحة.. ففي أوائل سورة البقرة يصف الله عباده: ﴿**ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾**﴾ (البقرة).

- فأين احترام العقل.. ومدح التفكير والتدبر في خلق الله؟

- العقل السليم يوصِلُ المرء أن للكون خالقاً وأن الله حيٌّ قيومٌ.. يدبر أمر السموات والأرض.. ويتكفل بحفظ هذا النظام الدقيق للكون..

ويمكن للعقل السليم أن يثبت نبوة «محمد» ﷺ.. ثم يعمل العقل في تدبير شؤون المرء الحياتية.. ولكن لا مجال للعقل أن يصل إلى تفاصيل «الحسن والقبيح».. ولا إلى ما سيكون بعد الموت.. ولا إلى تفاصيل ما لا يراه ولا يسمعه ولا يستطيع أن يجربه من الغيبيات؛ فالعقل يعجز عن ذلك.. فهو كما كل شيء آخَر مخلوق له قدرات محدودة.. يعمل خلالها.. ويعجز فيما وراءها.. وبالمنطق إذا ثبت بالعقل أن الرسول ﷺ مبعوث من عند الله.. فما يخبر به حق نؤمن به.. وإلا فإنه ليس برسول.. فلا ينبغي أن نخضع كل أمر بعد ذلك لعقولنا..لأننا بذلك ننقض القضية الأولى أنه رسول مبعوث من عند الله.. فيجب أن نقبل كل ما يصلنا منه.. ونؤمن يقينا بكل ما يخبرنا به.. وتبقى وظيفة العقل في هذه المرحلة هي إثبات أن ما يصلنا تصح نسبته إلى الرسول ﷺ أم لا.. فاليقين بأن الموت حق.. وأن القيامة حق.. وأن الجنة حق.. والنار حق.. كل هذه القضايا يجب أن تكون يقيناً لا يتزعزع عند كل مسلم.. إن كان يريد أن يبقى ضمن دائرة الإسلام.

العرّافون... دجالون

طلب إليَّ أن يرافقني في رحلتي القصيرة إلى لبنان.. أجبته إلى طلبه.. كانت المرة الأولى التي أسافر معه.. نِعم الصاحب كان.. كان برنامج اليوم الثالث والأخير من رحلتنا أن نشتري غرضين من (الحمرا) ثم نتجه إلى المطار:

- هل لي أن ألتقي بصديق لبناني قديم في الحمرا؟!

- بالتأكيد فلدينا الكثير من الوقت.

هاتف صاحبه (أبا فاطمة).. وكان الموعد الساعة الحادية عشرة في أحد المقاهي:

- صاحبي هذا تعرفت عليه منذ أكثر من سبع سنوات... كلما أتيت إلى بيروت إلتقيته لأساعده مادياً فهو صاحب عائلة مكونة من سبعة أنفس، فضلاً عن عائلة أخته التي ترملت ولديها أربع بنات.

- وماذا يعمل؟

- لديه مركبة خاصة يتكسب بواسطتها، ويبيع بعض الحاجيات كالأعشاب والعسل، ويقرأ الفنجان لزوجتي.

أزعجتني (المهنة) الأخيرة:

- وكيف ترضى أن يقرأ لكم الفنجان، وتعطيه نقوداً على ذلك؟!

شعر أنني جاد في اعتراضي فاستدرك الأمر.

- كلا... لم أقصد الذي فهمت، أنا أعطيه النقود لمجرد لقائي به، ثم يدعو لنا - أنا وزوجتي - ويصر أن يقرأ لها الفنجان، وتعلقَت به، منذ تنبأ بحملها، وبالفعل رجعنا إلى الكويت وكانت حاملاً.

زاد انزعاجي... من حيث أراد أن يخفف الأمر:

- اسمح لي أنا لن أشارك في هذه الخزعبلات، ولن أرضى بها، فإن أردت أن نساعده فبها ونعمت أما أن يقرأ لك الفنجان أو الكف... فلا.

وفي الوقت والمكان المتفق عليهما إلتقينا بأبي فاطمة... هو أقرب إلى الستين منه إلى الخمسين... يحمل مسبحة... ثيابه تدل على فقره، وبعد التحية:

- أنا هنا منذ نصف ساعة تقريباً... خشية تأخير (عجأة) المرور... جلسنا... طلب كل منا شرابه، أصرّ صاحبي أن يكون الحساب عليه، وكان لدينا ساعة من الوقت قبل أن نذهب إلى المطار.

شعرت أن صاحبي يريد الحديث مع (أبي فاطمة) على انفراد... فغادرت:

- أظن أنني سأشتري بعض العطور العربية من ذلك المحل... غبت نصف ساعة... رجعت... فإذا صاحبي منشرح الأسارير تعلو وجهه ابتسامة ظاهرة... غادرنا وفق ترتيباتنا... ودَّعنا أبا فاطمة بعد أن أعطيته ما تبقى معي من النقود اللبنانية... في الطريق:

- أراك منفرج الأسارير بعد لقاء صاحبك...

لم يجبني على الفور... إنما اتسعت ابتسامته:

- جزاه الله خيراً... أرتاح كلما إلتقيته.

- ولِمَ ذاك؟

- أخبرني أن مولودي القادم صبي.

انزعجت جداً... من صاحبي:

- وهل قرأ لك؟

لم يجب...

- يا أبا عدنان... إن مجرد الذهاب لمن (يتنبأ بالمستقبل) ذنب عظيم، وتصديقه (نوع من الشرك)، والغيب لا يعلمه إلا الله... لا هؤلاء (الدجالون، لا الحيوانات ولا الطيور ولا الأخطبوط (بول)، ولا أحد... ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (النمل).

عرش الشيطان

حذّر الله عز وجل بني آدم من عبادة الشيطان، فقال سبحانه: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ (يس)، ولا يحذّر الله عباده من أمر إلا لشدته ولاحتمال أن يقع فيه بعضهم، وبيّن سبحانه أن بعض بني آدم يتخذ الشيطان ولياً: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ (النساء).

وأخبر الله عز وجل عن إبراهيم، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ (مريم)، وأخبر عز وجل عن فئة من بني آدم: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ (المجادلة).

- وهل يعتقد الشيطان أنه يستحق العبادة من دون الله؟

- ابتداء كُفر الشيطان كان بسبب (الكِبر) وهذا المرض يبلغ بالمخلوق إلى ما لا حدود له، فها هو ذا فرعون علا واستكبر: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ (القصص)، وبلغ فيه الغرور كما قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى

فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ (القصص)، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ (النازعات).

فالمخلوق إذا تكبّر يعظُم في نفسه حتى يبلغ به كِبْرُهُ أن يظن نفسه إلهاً، وهذا ما حصل لإبليس؛ فإنه من تعظيمه لنفسه اتخذ عرشاً له، كما ثبت في صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ: «**إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرّقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت**» **قال الأعمش**: «**أراه قال فليتزمه**»، أي: يضمه إلى نفسه ويعانقه.

- ولماذا يفعل الشيطان هذا الأمر؟

- كنت وصاحبي نتحاور في المجلس أمام المسجد بانتظار صلاة العشاء وقد بقي أكثر من عشرين دقيقة على موعد الأذان.

أولاً: نؤمن بهذه القضية الغيبية؛ لأنها ثبتت في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ، أين؟ وكيف؟ ومتى؟ أسئلة لا تهمنا.

ثانياً: الشيطان يريد أن يعظِّم نفسه ويحقق كبرياءه، فاتخذ لنفسه عرشاً وهو يعلم أن لله سبحانه وتعالى عرش، وكان عرش الرحمن عز وجل على الماء قبل خلق السموات والأرض، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ

لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ (هود)، وفي البخاري عن عمران بن حصين – رضي الله عنهما – أن ناساً من أهل اليمن سألوا النبي ﷺ فقالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر (أي بدأ الخلق) قال ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض**».

فإبليس – لعنه الله – يضع عرشه على الماء تعظيماً لنفسه وتشجيعاً لجنده من الشياطين، ويرسلهم إلى بني آدم ليفتنوهم ثم ينتظرهم آخر اليوم ليكافأهم على إغوائهم بني آدم، فأعظمهم عنده، أعظمهم إغواء لبني آدم، وجاء في حديث ابن صياد: لقيه رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر في بعض طرق المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «**أتشهد أني رسول الله؟**» فقال هو: أتشهد أني رسول الله؟، فقال رسول الله ﷺ: «**آمنت بالله وملائكته وكتبه، ما ترى؟ قال: أرى عرشاً على الماء، فقال** ﷺ: «**ترى عرش إبليس على البحر، وما ترى**»؟ قال: أرى صادِقَيْن وكذَّاباً أو كاذِبَيْن وصادقاً. فقال ﷺ: «**لُبِّسَ عليه.. دعوه**» صحيح مسلم.

حجج الشيطان

كثير من الناس يبرر ضلال الآخرين بأن «الشيطان خدعه».. ولو تتبعنا الآيات والأحاديث التي تبين الحق في كيد الشيطان.. لوجدنا: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ (النساء) ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ (النساء).

وفي الحديث: «**الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة**» حسن (الألباني).

- هل تعني أن الاعتذار بإضلال الشيطان ابن آدم غير صحيح؟

- بل أعني أن دور الشيطان التزيين: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ (النمل: ٢٤) ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ (الأنفال: ٤٨)، والوسوسة: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ (الأعراف: ٢٠)، الإلهاء والإنساء: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ (الكهف: ٦٣) والوعد الكاذب: الآية (٢٢) سورة إبراهيم ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ فلا يترك الشيطان سبيلاً إلى قلب ابن آدم إلا سلكه.. من باب الشهوات.. أو الشبهات.. ويوهمه أنه على حق.. وإن كان مرتكباً لأكبر المعاصي وأشد الذنوب.. ليصده عن التوبة والاستغفار.. يغريه تارة ويجعله يغضب ويثور تارة.. ويجعله يقنط تارة.. وهكذا لا يتركه حتى ينال أقصى ما يستطيع مع أن الحل سهل.. الاستعاذة بالله والاستعانة به سبحانه وتعالى.

- هل لي بمزيد توضيح؟

- اسمع هذا الحديث: رأى رسول الله ﷺ رجلاً قد بلغ منه الغضبُ

مبلغاً.. فقال ﷺ «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» متفق عليه.. وبالتجربة.. إذا راودتك الهموم والوساوس والظنون الكاذبة.. قل: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**».. وكررها.. يذهب عنك كلُّ ما تجد.

كنت وصاحبي في حوار عند باب المسجد بعد انقضاء صلاة العشاء:

- وماذا عن وسوسة الشيطان.. كيف تتعاظم وكيف تخنس؟

- من استجاب للوسواس تعاظم.. ومن استعاذ بالله من الوسواس خنس؛ فإن غاية ما يستطيع الشيطان عمله هو الوسوسة.. كما في الحديث الذي ذكرته آنفا.. ولذلك يلخص الشيطان ما كان يفعله مع بني آدم في الدنيا برده عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ (إبراهيم).. فالشيطان يدعو إلى الشرك والكفر والنفاق والمعاصي والرذيلة.. وهذه الدعوة مزخرفة مزينة.. بالشبهات والشهوات.. والإنسان يلبي الدعوة أو يرفضها.. وحجج الشيطان تكون منطقية فكرية اجتماعية شهوانية.. ولكنها جميعاً.. حجج واهية لا تقوم مع الأدلة القوية والحجة الواضحة من القرآن والسنة.. ولكن من أراد أن يتبع الشيطان يتبنَّى أطروحاته وحججه.. ويدافع عنها.. وسوف يخذله الشيطان عند لحظات الموت: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ (الفرقان).

الأزواج كلها

قرأ إمامنا من سورة يس.. الآيات (٣٢-٥٩) في صلاة الفجر.. قررت وصاحبي أن نتمشى بعد الصلاة:

- الآيات التي قرأها إمامنا مؤثرة جداً.. لمن تدبرها..

قاطعني:

- لمن تدبرها.. وقليل من يتدبر.. ولذلك نبهنا الله عز وجل إلى هذا الأمر وأمرنا به وحذرنا من عدمه.. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد).. ولكن هات ما عندك حول آيات سورة يس.

- هذه الآيات فيها تنبيه إلى بعض مخلوقات الله وبيان قدرة الله فيها.. إحياء الأرض بعد موتها.. والشمس والقمر.. والليل والنهار.. وبدأت بتنزيه الله.. والإشارة إلى طبيعة جميع المخلوقات أنها أزواج.

- تعني قوله عزّ وجلّ.. ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (يس)؟

- نعم.. وهنا يمكن فهم الآية بطريقتين.. الأولى: تنزيه الله عز وجل وأنه سبحانه خلق كل شيء أزواجاً.. وهو جمع «زوج».. وهو ما له مثيل من جنسه أو صنفه.

- ولكن.. معظم ما جاء في ذكر الأزواج جاء في النبات: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

﴿٥﴾ (الحج).. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ (طه)، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ (لقمان).

- هذا على الأكثر ولكنه يشمل كل شيء.. والمعنى الأَوْلى للآية من سورة يس.. أن اللّه سبحانه هو الفرد الأحد الذي لا زوج له ولا ندّ له ولا مثيل له.. وكل شيء آخر.. له مثيل.

أراد أن يقاطعني.. أستاذنته أن أكمل.

- فكل ما سوى اللّه عز وجل.. فهو زوج.. ولا فرد إلا اللّه عزّ وجلّ.. وهذا المعنى يتفق مع الآيات التي تثبت الفردية للّه عز وجل وانتفاء الند: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص) ولذلك بدأت الآية.. بـ«سبحان».. فهو عز وجل منزه عن أي مثيل.. عن ابن عباس رضي الله عنه: «الأزواج: الضروب والأنواع كالحلو والمر والأبيض والأسود والذكر والأنثى.. والفوق والتحت.. واليمين واليسار.. إلى غير ذلك».. وفي قول اللّه تعالى... ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ (ص).. أي أصناف العذاب.. وفي قوله: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ (الصافات)، جمهور أهل العلم: «المراد به أشباههم ونظراؤهم، فعابد الوثن مع عابد الوثن والسارق مع السارق والزاني مع الزاني.. واليهودي مع اليهودي والنصراني مع النصراني وهكذا.. وإطلاق الأزواج على الأصناف مشهور في القرآن وفي كلام العرب..».

- هذا معنى جميل في وحدانية اللّه وتفرده.

- نعم.. وهو أسمى وأولى معنى يمكن تحقيقه من آيات الله عز وجل.. ولو أردنا ان نستفيد من هذا المعنى في التطبيقات العلمية أيامنا هذه يمكن أن نجزم بأن كل المخلوقات «أزواج» أو «ثنائية» أو لها «نظائر» سواء اكتشفنا هذا الأمر أو لم نكتشفه.. لأن المتصف بالفردية أنه «فرد لا مثل له».. هو الله ولا شيء سواه.

المكـــر الســيئ

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (فاطر).

- هذه الآيات نزلت في مشركي العرب أنهم في يوم من الأيام أقسموا إن جاءهم رسول فسيكونون أهدى من اليهود والنصارى، فلما بُعث فيهم الرسول ﷺ ازدادوا بُعداً ونفوراً من الدين استكباراً، وأخذوا يمكرون بالرسول ﷺ أو يزيدون في المعاصي والشرك.. وغفلوا عن أن المكر السيئ لا تكون عاقبته إلا على من مكر، هذا باختصار بيان هاتين الآيتين.

كنا في اجتماعنا نصف الشهري.

- هل هذه قاعدة: المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله؟!

- نعم.. هي إحدى سنن الله التي لا تتبدل، وتعلمون أن (المكر) هو التدبير بالخفاء لإيقاع الضرر بالآخر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنفال)، بل أخبر الله أن عادة الكفار أن يمكروا بأنبيائهم، فقوم نوح: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (نوح)، ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن

قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ (الرعد)، ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ (إبراهيم)، ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (آل عمران)، فهذا خُلُق الكفار جميعاً يخططون بالخفاء لإيذاء رسل الله وأتباعهم، والله يحبط خططهم في الدنيا ويعذبهم بها في الآخرة، فلا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

وقيل في المكر: إظهار الطيب وإبطان الخبيث، فالمكر السيئ عاقبته على صاحبه دائماً ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ (فاطر).

- وما معنى (يحيق) لغة؟

- تقول العرب: حاق به المكروه، يحيق به حيقاً وحيوقاً، إذا نزل به وأحاط به، ولا يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة؛ فلا يقال: حاق به خير.

- وهل هذه القاعدة تطبق في كل زمان ومكان؟!

- إحدى سنن الله الثابتة في خلقه، إذا مكر أهل الشرك بالمؤمنين الصادقين؛ فإن الله يحبط مكر هؤلاء ويحفظ عباده من مكرهم، وإن لم يحصل هذا الحفظ فهو بسبب خلل عند المؤمنين، وإلا فسنن الله لا تتبدل، والمكر أحد ثلاثة أمور يرجع ضررها على صاحبها، أما الأمران الآخران فهما نكث العهد، والبغي: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ

نَفۡسِهِۦۖ﴾ (الفتح: ١٠)، والبغي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ (يونس: ٢٣)، وبالطبع هذا لا يعني إلغاء بذل الأسباب وأخذ الحيطة، كما قال تعالى مرشداً رسوله ﷺ: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ (الأنفال).

جماعة الحق.. قِلَّة!

يعجبني في (بوبدر).. قلة كلامه، انشغاله بإصلاح نفسه وتقوية إيمانه.. فهو كثير الجلوس في المسجد يقرأ القرآن.. يتابع الدروس العلمية ويحرص على حضورها والاستفادة منها.. يشارك في كل نشاط خيري نعلن عنه في المسجد.

- أخبرني أحدهم أن حديث «لا تجتمع أمتي على ضلالة».. ضعيف مع أني كنت أعده أحد الأحاديث الثابتة الأساسية عن رسول الله ﷺ.

- الحديث بهذه الصيغة لا أعرف مدى صحته.. ولكن المتن الآخر.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يجمع أمتي أو قال: أمة محمد على ضلالة ويد الله على الجماعة (ومن شذ شذ في النار)**» رواه الترمذي وصححه الألباني عدا (**ومن شذ....**) فقد ضعفه. وهذا الحديث يسيء فهمه كثير من الناس يظنون أن «جماهير» المسلمين لا تجتمع على ضلالة.. وهنا الخطأ.. يعلق الشيخ الألباني رحمه الله: «لا يصح تطبيق هذا الحديث على الخَلَف اليوم على ما بينهم من خلافات جذرية..» «لا تجتمع أمتي على ضلالة» لا يمكن تطبيقه على واقع المسلمين اليوم، وهذا أمر يعرفه كل دارس لهذا الواقع السيىء يضاف إلى ذلك الأحاديث الصحيحة التي جاءت مبينة لما وقع فيمن قبلنا من اليهود والنصارى وفيما سيقع في المسلمين بعد الرسول ﷺ من التفرق، فقال رسول الله ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» قالوا: من هي يا رسول**

الله؟ قال: «**هي الجماعة**».. والحديث الآخر، «**إن أمتي لن تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم**».. ضعفه الألباني، والرواية الأخرى: «**إن الله تعالى قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة**» حسن، فالمعنى إجمالاً صحيح ثابت، ولكن المعنى أن الجماعة هي ما كانت وفق الكتاب والسنة لا بكثرة العدد، فلا عبرة بالكثرة إذا كانت مخالفة للكتاب والسنة، ولقد وصف الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم ﷺ أنه كان أمة: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (النحل).. يقول مجاهد: كان مؤمناً وحده والناس كفار كلهم، وفي زمن الإمام أحمد بن حنبل كانت الفئة الثابتة على عقيدة أهل السنة والجماعة هي القلة وعقيدة الأمة مخالفة لهذه العقيدة فكانوا هم «الجماعة» مع قلة عددهم، وحديث الغرباء، «**إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء.. قيل من هم يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس**» صححه الألباني، وفي رواية. «**ناس صالحون قليل: في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**» صححه الألباني، فهذه الروايات وغيرها تحذر المرء من أن يتبع الأكثرية لمجرد كثرتهم، فالحساب يوم القيامة «فردي»، ولا عبرة بالكثرة، بل في الأمم السابقة.. الكثرة ضلت.. ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ (الصافات) ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ (الأنعام).. ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (يوسف).. وكذلك الأحاديث عن الأمم السابقة أن النبي يأتي ومعه الرجلان والرجل والنبي ليس معه أحد (متفق عليه). فالمؤمن يحرص على اتباع الكتاب والسنة وإن كان مع القلة القليلة في المجتمع.

من اختبارات التقوى... تسريحٌ بإحسان

- لقد وصف الله عز وجل الإمساك «بالمعروف» والتسريح «بالإحسان».. والإحسان أعلى درجة من المعروف... أليس كذلك؟

كان محدثي «بو مساعد» أحد رواد المسجد الذين لا تراهم كثيراً لبعد منزله... ولكن إذا حضر يسأل.

- ملاحظة جميلة..

والإجابة: بلى... الإحسان أعلى من المعروف.

- كنت أقرأ سورة البقرة واستوقفتني آيات الطلاق من الآية: (٢٢٦ إلى الآية (٢٣٢) ثم ذهبت إلى سورة الطلاق.. وحاولت أن أربط هذه وتلك وما زلت أقرأ تفسير كل هذه الآيات.

- إن الطلاق حلٌّ أوجده الله لوضع بين زوجين لا يمكن أن تستمر الحياة بينهما... وإذا كان الطلاق وفق شريعة الله فإنه يقضي على كثير من مشكلات المجتمع.

- وكيف يكون الطلاق وفق شريعة الله؟

- إذا اختلف الزوجان... ولم يمكن الإصلاح بينهما... وأراد الرجل أن يطلِّق زوجته.. فعليه أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه.

قاطعني:

- هل تعني... أنه إذا حصلت مشكلة... اليوم.. بين زوجين.. وقرر

الزوج الطلاق... فإن عليه أن يصبر حتى تحيض زوجته ثم تطهر ثم إذا أراد الطلاق طلقها قبل أن يأتيها؟

- نعم.. إلا أن تكون حاملاً فله أن يطلقها دون أن ينتظر... هكذا أمرنا الله في الطلاق... وهذا تفسير قوله عز وجل في سورة الطلاق: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.. ولاحظ أن الله أمرنا في آيات الطلاق... بمراقبته... والتزام حدوده: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)﴾ (البقرة)، ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)﴾ (البقرة) ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢)﴾ (الطلاق).. فعلى المسلم الذي يدَّعي التقوى أن يتقي الله في هذا الأمر بأن ينفذه وفق شريعة الله والمنهج الذي بيّنه الرسول ﷺ فلا يطلّق ثلاثاً في مجلس واحد... ولا يطلق في حيض أو طهر جامع فيه.. ولا يشن حرباً.. على مطلقته ليتهرب من النفقة.. هنا يقيس الإنسان مدى تقواه لله عز وجل.

- إنه اختبار صعب لكثير من الناس.

- نعم.. وذلك حتى لا يظن أحدنا أنه لمجرد كثرة صلاته وصيامه بلغ منازل المتقين... بل عليه أن يتقي الله فيما يكره... كموضوع الطلاق... وقطيعة الرحم.

- كيف في موضوع قطيعة الرحم؟!

- أن يصل رحمه وفق شريعة الله... فَيَصِل من قطعه.. ففي البخاري قال رسول الله ﷺ: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**» فمن يستطيعُ أن يصل من قطعه؟.. هنا تتجلى التقوى وتقديم طاعة الله على هوى النفس.

- هل حديث: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» صحيح؟

- الحديث عن ابن عمر رواه أبو داود وضعفه الألباني، ولكن هناك حديث آخر يبين أن للشيطان دوراً في قضية الطلاق عموماً:

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئاً قال ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت**» قال الأعمش: أراه قال: فيلتزمه (**فيلتزمه**) أي يضمه إلى نفسه ويعانقه. (صحيح مسلم).

الزيـــغ بعد الهدى

كنا في مجلس عِلم أيام التشريق في منى.. تناول الشيخ أموراً كثيرة مما يجب على من أدى فريضة الحج أن يراعيها بعد أداء هذا الركن العظيم، كنت وصاحبي في طريقنا إلى مكان إقامتنا بعد انتهاء المحاضرة.

- أكثر ما شدني في هذا الدرس تركيز الشيخ على ضرورة الخوف من الضلال بعد الهدى، وتفسير قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (آل عمران).

استدركت عليه:

- هذه الآية جاءت بعد بيان حال الراسخين في العلم.. في الآية التي قبلها.. ولذلك قال كثير من المفسرين: هذا الدعاء من جملة ما يقوله الراسخون في العلم بعد أن قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ (آل عمران: ٧).

لو تفكرنا قليلا لأيقنّا حقاً أن أخوف ما يجب أن يخاف العبد على نفسه.. الضلال بعد الهدى.. ولذلك وجب عليه ألا يركن إلى نفسه في هذه القضية الخطيرة.. بل يبذل الأسباب.. ويدعو الله أن يثبته على الحق.. كان من تعليم النبي ﷺ لأمته أنه كان كثيراً ما يدعو: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» البخاري.

- ولاحظ أن الدعاء: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾.. و«ثبت قلبي».. وذلك أن الأفعال قد تختل أحياناً، وتقصر أحياناً أخرى، ولكن إذا زاغ القلب وضلّ، فإن الفساد يصيب كل شيء، وهذا وصف بني إسرائيل عندما آذوا موسى

عليه السلام: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ (الصف).

– ولكن كيف نجمع بين قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ (الأنفال) وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾ (الرعد).

– المؤمن إذا ذُكّر بالله خاف من لقائه.. وعذابه.. وذلك في الحياة الدنيا، فاجتنب المعصية.. خوفاً من الله، وإذا ذَكَرَ الله اطمأن قلبه فلا يجزع لأمور الدنيا ومصائبها وتقلباتها.. فالمؤمن حاله بين الخوف والرجاء، وهو للخوف أحوج في حياته وللرجاء أحوج في احتضاره.

– والأمر الآخر الذي يخافه المؤمن في حياته؟

كنا قد توقفنا لتناول شيء من المرطبات قبل الوصول إلى مخيمنا:

الأمر الآخر هو الخوف من عدم قبول العمل.. كما في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ (المؤمنون).

وحتى يحصل أحدنا على هاتين الصفتين: الخوف من الزيغ بعد الهدى، والخوف من عدم قبول العمل الصالح، ينبغي أن يذكّر نفسه دائماً بهذا الأمر.. ذلك أن الشيطان يريد للمؤمن أن يركن إلى عمله.. وينسيه ذكر الله.. والدعاء.. حتى ينال منه.. وكما أضاف الله الزيغ إلى القلب.. أضاف الهداية إلى القلب: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١١﴾ (التغابن).

- وهل تضاف (الإزاغة) إلى اللّه عز وجل؟

- إن اللّه خلق الخير والشر، والإنسان يختار بإرادته، ويقال هنا كما يقال في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النحل)، واسمع قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ (محمد:).. والآيات في هذا المعنى كثيرة، وكلها تدور حول معنى واحد: أن الذي يأخذ بأسباب الهداية.. من الإخلاص.. والعمل.. والدعاء.. يهديه اللّه.. بفضله.. ومن يترك الأسباب ويتبع سبيل الضلال، يتركه اللّه لاختياره.. بعدله.. وهذا وذاك كله بمشيئة اللّه.. لا شيء يقع رغماً عن اللّه عزوجل، ولذلك جاء في الحديث القدسي عن حال العبد يوم القيامة يقول اللّه عز وجل: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد اللّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه**» مسلم.

سكت العلماء.. فكتب السفهاء

في مجلسنا نصف الشهري ذكر الإخوان قضية الإساءة إلى أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وأمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان بعض الحضور على دراية بتفاصيل لم أكن أعرفها، وذلك لتتبعهم للأمر وطبيعة عملهم.

- الذين كتبوا ليسوا إلا صبية صغاراً لا يقدّرون خطورة هذا العمل.

- دعني أبين بعض الأمور من ناحية شرعية:

أولاً: كل من بلغ (البلوغ الجسدي) فإنه مسؤول أمام الله تعالى عن كل تصرفاته وسيحاسب محاسبة الرجال يوم القيامة، «**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبيّ حتى يبلغ، وعن المعتوه حتى يعقل**» الترمذي وأبو داود، صححه الألباني.

ثانياً: لماذا كتب هؤلاء عبارات تسيء إلى أم المؤمنين - رضي الله عنها - وأمير المؤمنين - رضي الله عنه - خاصة؟ لأن آذانهم سمعت الكثير من (الشتائم) و(الذم) و(الانتقاص) في حق هاتين الشخصيتين العظيمتين، فلم يسمعوا يوماً مدحاً لأم المؤمنين ولا توقيراً لأمير المؤمنين، ولم ينبههم أحد من علمائهم إلى أن عائشة - رضي الله عنه - وصفها الله في كتابه بآيات بينات، يقرؤها الجميع، صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، حليمهم وسفيههم بأنها أم للمؤمنين: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ

مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٦)، ولا أريد أن أذكر الأحاديث والآثار التي ثبتت في حق عائشة - رضي الله عنها - لأن كلام الله واضح وكاف وشاف.

تدخل (بونواف) أحدث أصهاري:

- هل تعني أن علماءهم يحملون وزر هذه العبارات المشينة في حق أمّنا عائشة، رضي الله عنها؟

- لا أشك في ذلك؛ فلئن كان لديهم مسوغ لعدم مدح عائشة زوجة نبيهم ﷺ وأمهم قبل نشر ما يسيء إليها؛ فإنه لا عذر للمراجع والعلماء ألا يكتبوا ويردوا على هذه الإهانات لأم المؤمنين بعد كتابتها ونشرها؛ وذلك بياناً للحق ولمواقفهم في الدفاع عن عرض النبي ﷺ، وحتى لا يتجرأ سفيهٌ آخر أن يكرر هذه الكبيرة في حق النبي ﷺ؛ فإن النيل من عرض الزوجة نيل من عرض الرجل، وهل يرضى أحد أن يسب سفيهٌ أمه؟ فكيف إذا كانت أولى من أمهاتنا، وعرضَ نبينا ﷺ؟

إن القضية أبعد من خطأ وقع فيه صبي صغير أو شاب مستهتر، إن الأمر عقيدة عند بعض الناس لا يتلفظون بها فينطق بها مجانينهم وسفهاؤهم.

هنا استدرك (بو يوسف) ابن أختي علينا:

- حقاً ما تقول يا خال، في حيِّنا أحد هؤلاء، شاب في العشرين من عمره معاق ذهنياً تراه معظم الأوقات يمشي بين البيوت، وكلما رآني ذكر عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم - بأسوأ العبارات وأشد الشتائم

(مجنون) أسأله لم تقول هذا الكلام؟ فيردد أن عمر فعل كذا وكذا، كل الإفتراءات والكذب الذي يذكره علماؤهم في المجالس والمحاضرات يذمون أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فمن أين لهذا المعاق ذهنياً أين يعرف هذه الأمور وهو لا يجيد نطق اسمه بطريقة صحيحة؟!

- على أية حال إن مكانة من لقي الله من الصحابة وآل البيت وأزواج النبي ﷺ عند الله لا يزيدها أحد ولا ينقصها أحد.

لقد أنزلهم الله مكانتهم وأكرم منازلهم، نحن الذين يبتلينا الله بما نقول عنهم ونعتقد فيهم، فإن أدّينا واجبنا نحوهم فزنا، وإلا فوالله إنا لمسؤولون بين يدي الله عن الافتراءات في حق النبي ﷺ وعرضه، فهذا أشد الأذى له ﷺ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ (الأحزاب).

وهل يتظاهر أهل الدين؟!

انقسم المجتمع الكويتي في الفترة الأخيرة بصورة لم يسبق لها مثيل.. ولعل المحيّر في الأمر اجتماع أصحاب الفكر الليبرالي... الذين كانوا وما زالوا يعدون التدين صورة من صور الرجعية والتخلف.. اجتمع هؤلاء... مع من يستوي عندهم المصلي وغير المصلي.. ومعهم.. أقوامٌ درسوا الشريعة ودرّسوها في الجامعة.. خليط غير متجانس اجتمعوا تحت شعار: «كرامة وطن». لا أحب السياسة.. ولا أمارسها.. ولا أتعاطاها.. ولا أجالس من يطرحها.

اجتمعت دون سابق ترتيب مع زميل لي منذ أيام الدراسة الجامعية.. لا ألتقيه كثيرا ولكن يعلم كل منا أخبار صاحبه.

- لماذا خرجت مع من خرجوا في المسيرة التي أسموها: «كرامة وطن»؟

استغرب أني عرفت بمشاركته في المسيرة... ولم ينكر، وإنما أجاب بتحد ووضوح:

- خرجت دفاعاً عن الحق.. ونصرة للحق.. وإنكاراً للباطل.

- جميل.. كل هذا الكلام.. ولن أناقشك في تفاصيل الحق الذي خرجت لأجله.. ولكن إذا اختلفنا في جواز «التظاهر» من عدمه.. وقبل ذلك.. ألا ينبغي أن نخضع تصرفاتنا جميعها لأمر الله وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم.. من باب الالتزام بشريعة الله؟!

- طبعا.. كلنا نهتدي بكتاب اللّه وسنة رسوله صلى اللّه عليه وسلم.. ونلتزم أمر اللّه.

- وإذا اختلفنا في أن أمراً ما يتفق مع شريعة اللّه أو يختلف مع شريعة اللّه.. كيف نصل إلى الحق في هذا الخلاف؟

- لدينا عقول.. نستطيع أن نميز من خلالها بين الحق والباطل.

أعدت صياغة سؤالي:

- أخبرتك أن عقلي اختلف في استنتاجه عن عقلك.. من الذي يحكم بيننا؟!

- الكتاب والسنة:

- لماذا لا تتلو قول اللّه عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (النحل، الأنبياء:٧).

سكت صاحبي.. ثم قال:

- ما الذي تريد أن تصل إليه؟

- أريد أن أصل إلى أن المسلم الذي يزعم أنه يتبع أوامر اللّه وهدي رسوله صلى اللّه عليه وسلم يجب عليه أن يسأل «أهل الذكر»..من العلماء الربانيين ولاسيما في القضايا العامة التي تمس مصلحة الأمة.

- وأين أهل الذكر هؤلاء؟

- هل تزعم أنه لا يوجد علماء ربانيون لدينا في الكويت؟ أم إنك تزعم أنهم ليسوا بالعلماء الذين يحق لهم أن يجتهدو في القضايا العامة

للأمة؟! إن الواجب على كل مسلم أن يسأل لجنة الفتوى العليا التي تتكون من علماء نثق بعلمهم ونزاهتهم - ولا نزكي على الله أحداً - قبل أن يُقدم على عمل يمس أمن المجتمع وسلامته.. ولا يحق له أن «يجتهد» من تلقاء نفسه؛ لأن الأمر أعظم من اجتهادات طلبة العلم فضلاً عن اجتهادات عامة الناس.

سكت صاحبي فتابعت:

- ولا أظن أن أحدا من المشاركين في هذه المسيرة.. سأل هيئة الفتوى.. ربما لأنهم يعلمون سلفاً أن الرأي الشرعي لا يؤيدهم .. وأخشى أن هؤلاء ضمن من وصفهم الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (النور)، فالمؤمن يخضع لأمر الله سواء وافق هواه أم عارضه.. وإلا فإنه يتبع هواه ولا يتبع ما جاء به رسول الله ﷺ.. فالعبرة ليست بالمظاهر والادعاءات.. بل بالتزام شرع الله ولاسيما إذا اختلطت الأمور وتشابكت الظروف وامتزج الحق بالباطل.. هنا.. ينبغي أن يسكت الجميع ويستمعوا إلى هيئة كبار العلماء.. ويطبقوا ما يصدر عنهم سواء وافق آراءهم أو ناقضها.. وإلا وقعت فتنة.. وكان سببها الأول.. اتباع من يزعم أنه من أهل الدين لهواه. ورأيه.. وإعراضه عن أمر الله وهدي رسول الله ﷺ الذي يبينه هيئة كبار العلماء، لا طلبة العلم ودكاترة كلية الشريعة.

فهرست الموضوعات